ثانيا

قسم البلاغة

البسملة
فى البيان القرآنى
خصائصها وأسرارها البلاغية

دكتور
القطب عبد السلام طه الجيار
أستاذ مساعد بقسم البلاغة والنقد
كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر بالقاهرة

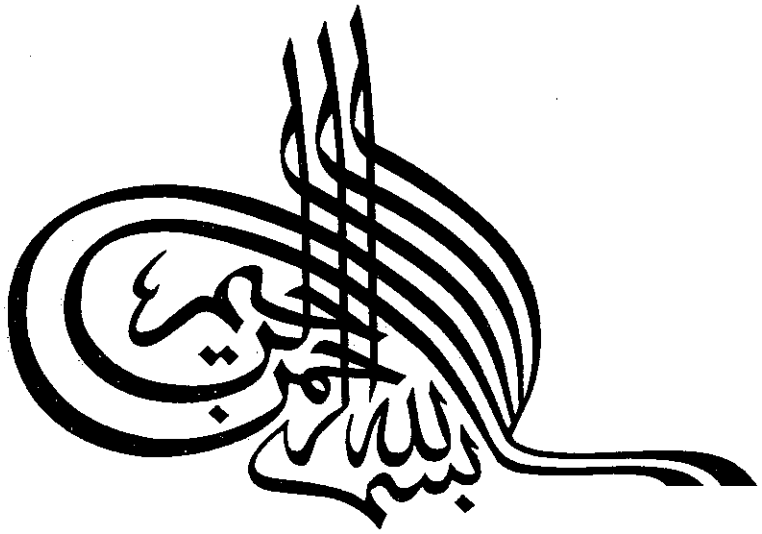
بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

حمداً لصاحب الحمد وشكراً لصاحب الشكر، وصلاةً وسلاماً دائمين على من أنزل عليه البيان سيد ولد عدنان وعلى آله وصحبه المجاهدين فى السر والإعلان.

وبعد:

فكرة قديمة لطالما ألحت على للقيام بحقها- وحق لها-؛ لمنزلتها السامية عند الله (تعالى) ألا وهى دراسة بلاغة البسملة فى القرآن والسنة، فعزمت وأعددت بيد أنى إذ شرعت هنالك فى القراءة عنها وجمع شتات مادتها كنت أعتقد أن الأمر هين حتى إذا حصدت ما حصدت وجدتنى فى خضم محيط لا ساحل له؛ فرأيت؛ إحقاقاً للحق ومرضاة لرب الخلق- أن أفرع هذا العمل إلى ثلاثة فروع أولها يعنى بصيغة البسملة وحدها بما تنطوى عليه من خصائص النظم وأسراره، وثانيها يتناول مظانها فى البيان القرآنى ووجوه بنائها ومقاصدها، وثالثها يتناول مثل ذلك فى البيان النبوى؛ ولا غرابة فى هذا التفريع لا سيما الثانى منه، لأن ميدانه كلام الله الذى لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وقد أدرك الأعلام الأول هذا المعنى ونبهوا إليه فى نحو قول أبى حامد الغزالى: "أما بعد. حمداً لله الذى هو فاتحة كل كتاب والصلاة على رسله التى هى خاتمة كل خطاب. فإنى أنبهك على رقدتك، أيها المسترسل فى تلاوتك، المتخذ دراسة القرآن عملاً، المتلقف من معانيه ظواهر وجملاً إلى كم تطوف على

لجتها؛ لتبصر عجائبها، وتسافر إلى جزائرها لاجتناء أطايبها، وتغوص فى عمقها فتستغنى بنيل جواهرها؟ أو ما تعير نفسك فى الحرمان عن دررها وجواهرها؛ بإدمان النظر إلى سواحلها وظواهرها؟ أو ما بلغك أن القرآن هو البحر المحيط، ومنه يتشعب علم الأولين والآخرين؟"[1].

هذا. وقد أنجزت- بعون الله وفضله العمل الأول، وها أنذا أقدم العمل الثانى باسم (البسملة فى البيان القرآنى. خصائصها وأسرارها).

وقد جاء فى مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة، فالمبحث الأول فى: البسملة فى افتتاح القرآن، والمبحث الثانى: البسملة فى مطلع سورة التوبة. حذفها ودلالتها. والمبحث الثالث: البسملة فى قصة الطوفان، والمبحث الرابع: البسملة فى رسالة سليمان (عليه السلام) إلى بلقيس. وفى الخاتمة ذكرت أهم نتائج البحث.

والله أشكر على ما من من توفيق، وأدعو أن يمد فى العمر؛ لإتمام الحلقة الثالثة فى هذا الباب، كما أرجوه أن يعفو عن الزلل، وأن يدخر لى هذا العمل فى اليوم الجلل. إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

راجى عفوربه

القطب عبدالسلام طه الجيار

---

(١) جواهر القرآن، ص٨/٩

المبحث الأول

البسملة فى افتتاح القرآن. خصائصها وأسرارها

ويتألف من ستة محاور:

المحور الأول- دخول الباء على الاسم دون المسمى ودلالته.

المحور الثانى- إضافة (اسم) إلى لفظ الجلالة دون أى من الأسماء ودلالته.

المحور الثالث- تقييد لفظ الجلالة بصفة (الرحمن) دون أى من الصفات ودلالته.

المحور الرابع- تقديم صفة (الرحمن) على (الرحيم) ودلالته.

المحور الخامس- تقديم البسملة على العامل ودلالته.

المحور السادس- بناء البسملة على العدد تسعة عشر ودلالته.

وإليك التفصيل:

المحور الأول- دخول الباء على الاسم دون المسمى ودلالته.

هذه مسألة خاض فيها القدماء، وتبارت حولها الآراء وتقارعت فيها حجج فحول العلماء؛ لما لها من أثر عظيم فى بيان إعجاز القرآن، وقيام الحجة به، بما يفتقر الحال فى استيفائه والإتيان عليه إلى تخصيصه ببحث منفرد؛ لذا أرجئ هذا التفصيل وأختصر القول فيها بما يلائم المقام فأقول: ذهب أبوحامد الغزالى إلى أن المغزى من قوله: "بسم الله" بدخول الباء على الاسم دون المسمى [illegible]

المبالغة فى الغرض المسوق له الكلام وهو الاستعانة بالذات العلية على تحصيل قراءة القرآن، وتقريره فى نفوس السامعين؛ من جهة أن دخول الباء على الاسم هكذا (بسم الله) يوجب الاستعانة به؛ مما يلزم عنه من باب أولى وطريق أوكد إفادة ثبوتها لما يتعلق به الاسم (المسمى) وهو هنا لفظ الجلالة؛ وترسيخ معناها فى النفوس بما لا يدع مجالاً لشك أو إنكار على حد قولك فى السلام على عظيم من العظماء: "السلام على حضرة الملك أو المجلس الموقر" بإدخال السلام على ما يتعلق بالملك وهو حضرته أو مجلسه لا عليه هكذا "السلام على الملك"؛ مبالغة فى إثباتك السلام لذاته، وتوكيده. وعلى العكس من ذلك لو دخلت الباء على المسمى فقيل: "بالله الرحمن الرحيم" فإنه لا يفيد إلا إثبات الاستعانة بالله دون المبالغة فيها، وكذا الشأن فى كل ما دخل فيه العامل على ما يتصل بالمعمول الأصلى مما هو شائع من أمثال: "مقدمه لسيادتكم أو سعادتكم أو فضيلتكم" دون "مقدمه لكم"، وإذا كان الشأن كذلك فى دلالة هذه الصورة على تقرير الحكم فإنه يلزم عنه بالضرورة معنى التصعيد والارتقاء- أيضاً- فى تعظيم الذات العلية والحث على كمال العناية بها. وقد أورد الغزالى هذا التوجيه فى معرض تفسيره لدخول فعل التسبيح على لفظ (اسم) دون لفظ الربوبية فى قوله (تعالى): "سبح اسم ربك الأعلى"؛ إذ يقول: "فإن قيل: فقد قال (تعالى): "سبح اسم ربك الأعلى" والذات هى المسبحة دون الاسم. قلت: الاسم هاهنا زيادة على سبيل الصفة؛ وعادة العرب جارية بمثله كقوله (تعالى): "ليس كمثله شىء"، ولا يجوز أن يستدل فيقال: فيه إثبات المثل؛ إذ قال (تعالى): "ليس كمثله

شىء" كما يقال: ليس كولده أحد؛ إذ فيه إثبات الولد؛ بل الكاف فيه زيادة.

ولا يبعد أيضاً أن يكنى عن المسمى بالاسم؛ إجلالاً للمسمى كما يكنى عن الشريف بالجناب والحضرة والمجلس فيقال: "السلام على حضرته المباركة، ومجلسه الشريف" والمراد به السلام عليه لكن يكنى عنه بما يتعلق به نوعاً من التعلق؛ إجلالاً. وكذلك الاسم وإن كان غير المسمى فهو متعلق بالمسمى ومطابق له. وهذا لا ينبغى أن يلتبس على البصير فى أصل الوضع"(١)، وحذا أبوحيان حذو الغزالى فى دلالة هذا المسلك على هذا المعنى عند حديثه عن آية سورة الأعلى إذ قال: "سبح: نزه عن النقائص "اسم ربك" الظاهر أن التنزيه يقع على الاسم أى نزهه عن أن يسمى به صنم أو وثن فيقال له: رب أو إله. وإذا كان قد أمر بتنزيهه اللفظ أن يطلق على غيره فهو أبلغ، وتنزيه الذات أحرى"(٢).

واعتبر أبوالقاسم السهيلى هذا التوجيه منهما ضعيفاً؛ لسببين:

الأول- ما يلزم عن ذلك من صحة دخول أى من العوامل على الاسم دون المسمى فيقال: "سبحان اسم ربى العظيم، وسبحان اسم ربى الأعلى" دون "سبحان ربى العظيم...."؛ ولم يرد سماع مثل ذلك عن الرسول (ﷺ) ولا عن صحابته (رضى الله عنهم)، وإنما سمع دخول التسبيح على المسمى فقط من نحو ما جاء فى حديث أبى هريرة (رضي الله عنه)

(١) المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى/١٦، ١٧.
(٢) البحر المحيط جـ١/٥٥٤.

ن رسول الله (ﷺ) قال: "كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم"[1]. فلم يقل: "سبحان اسم الله العظيم"؛ فدل عدم وروده على أن السلف لم يعتقدوا ما رآه الغزالى ومن تبعه من دلالة (بسم الله) على تقرير الحكم وتعظيم المسمّى؛ فبطلت هذه الدلالة لهذا السبب.

الثانى- ما يلزم عليه أيضاً من إطلاق التكبير والتحميد والتنزيه على الاسم مقصوداً به الخالق فيقال: "كبرت اسم ربى، واسم ربى أكبر"؛ وقد أجمعوا على عدم صحته؛ إذ لم يؤثر كذلك، ولزم عنه بطلان مذهبهم.

من ثم خالف السهيلى ورأى أن لهذه الصورة حكمة أخرى هى عنده: تنبيه السامعين إلى ذكر الله بالبسملة عن طريق القلب واللسان معاً، مستنداً إلى أن الله (تعالى) علق قبول الإيمان عليهما معاً، فقال عن الاعتقاد بالقلب: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ...﴾[2]. الآية، وعن التلفظ باللسان: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا...﴾[3]، وقول الرسول (ﷺ) فيما رواه عنه ابن عمر (رضي الله عنه): "بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً

(١) صحيح البخارى جـ٤/٣١١ كتاب التوحيد. باب ونضع الموازين القسط. صحيح مسلم جـ٩/٢٢ كتاب الذكر- باب فضل التهليل والتسبيح رقم ٢٦٩٤.

(٢) الحجرات. آية ١٤.

رسول الله، وإقام الصلاة...."[1]؛ ولما كان مقام البسملة مقام عبادة واستعانة عول فيه كذلك على الأمرين معاً- القلب واللسان؛ فاقتضى دخول الباء على الاسم؛ إيذاناً بأن ذكره والاستعانة به لا تتحقق إلا بهما فكأن مآل المعنى فى قوله: "بسم الله..": باستعانتى بالله قولاً واعتقاداً أحصل فعل قراءة القرآن، فلو قيل: "بالله الرحمن الرحيم" لأوهم خلافه وهو الاستعانة بالقلب فقط، وليس كذلك. وإلى هذا الاعتراض وتصحيحه يشير السهيلى بقوله: "فإن قيل: كيف جاز (سبح اسم ربك الأعلى) و(اذكر اسم ربك) والمقصود بالذكر والتسبيح هو الرب (تبارك وتعالى) لا اللفظ الدال عليه؟ قلنا: "هذا سؤال قد كع عنه أكثر المحصلين، ونكته عجز عنها أكثر المتأولين. وقد أجاب عنها أبوحامد الغزالى فى كتابه (المقصد الأسنى) بجواب غير شاف ولا كاف فقال: إنما تعلق التسبيح والذكر بالاسم، وإن كان غير المسمى؛ لأن التعظيم والتنزيه إذا وجب للمعظم فقد تعظم ما هو من سببه؛ لأجله كما يقال: السلام على حضرة الملك. ونحو هذا من الكلام. وهو (رحمه الله) وإن كان من أهل التحقيق فقد غابت عنه نكتة المسألة. وبالله التوفيق. وإنما ضعف جوابه (رحمه الله) من وجهين: أحدهما: ما تقدم من أن رسول الله (ﷺ) لم يؤثر عنه ولا عن أحد من المقتدين به أنه قال فى تسبيحه: "سبحان اسم ربى" فدل ذلك على أنهم لم يعتقدوا ما قال من أن التسبيح فى قوله: "سبح اسم ربك الأعلى" متعلق بالاسم بل المقصود المسمى، والاسم مذكور لحكمة أخرى. والوجه الثانى: أنه يلزمه أن يطلق على الاسم التكبير والتحميد

(١) الجامع الصحيح جـ١/١٠ كتاب الإيمان. باب دعاؤكم إيمانكم

التنزيه والتقديس، وغير ذلك من المعانى المقصود بها الله (تعالى) يقول: "كبرت اسم ربى، واسم ربى أكبر" وغير ذلك مما أجمع المسلمون على تركه، ولم يؤثر عن أحد من السلف والخلف (رحمة الله عليهم). القول السديد فى ذلك- والله المستعان-.

أن نقول: الذكر على الحقيقة محله القلب؛ لأنه ضد النسيان التسبيح نوع من الذكر، فلو أطلق الذكر والتسبيح لما فهم منه إلا ذلك دون اللفظ باللسان؛ والله (عز وجل) إنما تعبدنا بالأمرين جميعاً ولم يتقبل من الإيمان إلا ما كان قولا باللسان واعتقاداً بالجنان؛ فصار معنى الآيتين على هذا: اذكر ربك، وسبح ربك بقلبك ولسانك؛ ولذلك أقحم الاسم؛ تنبيها على هذا المعنى حتى لا يخلو الذكر والتسبيح من اللفظ باللسان؛ لأن الذكر بالقلب متعلقه المسمى المدلول عليه بالاسم دون ما سواه، والذكر باللسان متعلقة اللفظ مع ما يدل عليه؛ لأن اللفظ لا يراد لنفسه. فلا يتوهم أحد أن اللفظ هو المسبح دون ما يدل عليه من المعنى. هذا ما لا يذهب إليه خاطر ولا يتوهمه ضمير! فقد وضحت تلك الحكمة التى من أجلها أقحم ذكر الاسم، وأنه به كملت الفائدة، وظهر الإعجاز فى النظم، والبلاغة فى الخطاب. فهذه نكتة لمتدبرها خير من الدنيا بحذافيرها. والحمد لله على ما فهم وعلم"[1].

وقد اختصر ابن القيم مذهب الغزالى ورد السهيلى عليه، ثم أضاف إلى ما أورده السهيلى معنى آخر مؤداه أن فى قوله: "بسم الله" تعريضاً

(١) نتائج الفكر /٤٤، ٤٥

بالآلهة الباطلة التى كان يعبدها الكفار والمشركون من دون الله، ولفت عقولهم إلى أنها مفتعلة ليس لها من الحقيقة إلا أسماؤها بخلاف الإله الحق فإن لاسمه معنى وحقيقة موجودة، وكذا التشنيع عليهم؛ لأن تركوا الإله الحق وعبدوا أسماء لا مسميات لها على حد قوله (تعالى): "إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم..."[1].

وذهب بعضهم إلى أنه لا فرق فى المعنى بين (بسم الله) و(بالله)، وأن دخول الباء على الاسم لا مغزى له- كما ارتآه الغزالى والسهيلي وابن القيم- واستندوا فى ذلك إلى دليلين:

الأول- ما ذكره أبوعبيدة معمرو بن المثنى من أن اسم الشىء هو الشىء بعينه. قال لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملاً فقد اعتذر"[2]

وهذا الدليل مردود بقول السهيلى السابق: "فقد وضحت تلك الحكمة التى من أجلها أقحم ذكر الاسم، وأنه به كملت الفائدة، وظهر الإعجاز فى النظم، والبلاغة فى الخطاب"؛ إذ يدل مفهومه على أن القول بصحة هذا الدليل يفضى إلى الطعن فى بلاغة القرآن، وإبطال إعجازه؛ من جهة أن زيادة (اسم) فى (بسم الله) ونحوه يعد حشواً لا فائدة منه، وعبثاً لا حكمة له؛ وهو محال على الله (تعالى) الذى يختص بالكمال المطلق وانتفاء

(١) بدائع الفوائد جـ١/١٩، التفسير القيم/٣١٦.

النقص المطلق؛ فثبت بذلك أن شيئاً من صنعته ليس إلا لحكمة، ومنها كلامه العظيم الذى قال فى حقه: "الله نزل أحسن الحديث.." وقال: "تلك آيات الكتاب الحكيم"؛ ومن ثم يتأكد وجوباً أن ثمة حكمة لدخول الباء على الاسم فى (بسم الله الرحمن الرحيم)، وينتفى القول بمساواته دخولها على المسمى هكذا "بالله الرحمن الرحيم"، وعليه يكون مذهب الغزالى. والسهيلى ومن تابعهم أوجب فى الصحة من هذه الجهة.

الثانى- أن الله وحده هو الخالق، وما سواه مخلوق؛ فلو كانت أسماؤه غيره لكانت مخلوقة، ولأفضى ذلك إلى معنى ألا يكون له اسم ولا صفة فى الأزل. ورده ابن القيم بأن الله لم يزل ولا يزال موصوفاً بصفات الكمال التى اشتقت أسماؤه منها فهى داخلة فى مسمى ذاته، فليست غيره، ولا ذاته[1].

والتحقيق ما ذكره ابن عطية من أن الاسم نحو: زيد. قد يطلق فى الكلام يراد به معناه ومسماه نحو: زيد قائم. وقد يطلق ويراد به لفظه لا معناه نحو: زيد ثلاثة حروف. فالمراد لفظه. ومن الأول قولك: يا رحمان انظر لى، ومن الثانى: الرحمان وصف لله (تعالى). أما كلمة (اسم) فقد يعبر بها ويراد المعنى أو المسمى، ويكون ذكرها أو زيادتها كزيادة النفس والعين والذات فى إفادة التوكيد والتثبيت لإرادة المسمى كما فى قولك: "جاء زيد نفسه أو عينه" فالمعنى من زيادة النفس أو العين تقرير نسبة المجئ إلى زيد ونفى أن فيه تجوزا بمجئ رسول له؛ فكذا الحال فى

(١) التفسير القيم/٤٧٨

زيادة (اسم) فى نحو (بسم الله الرحمن الرحيم) يراد به الذات والمسمى، فزيادته لتوكيد الاستعانة بالمسمى ونفى الشك عنه باحتمال الاستعانة بما يتصل به من نحو ما كان يفعله المشركون من الاستعانة بما يتصل به- فى اعتقادهم- وهم الأصنام والأوثان على حد قولهم: "ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى"، وقد يعبر بها ويراد بها لفظها، ومنه قوله (ﷺ) فيما رواه عنه أبوهريرة (رضي الله عنه): "إن لله تسعة وتسعين اسماً..."[1]. يقول ابن عطية: "وقد ذكر بعض المفسرين فى هذا الموضع الاسم والمسمى هل هما واحد؟ وقال الطبرى (رحمه الله): إنه ليس بموضع للمسألة. وأنحى فى خطبته على المتكلمين فى هذه المسألة ونحوها. ولكن يحسب ما تدوول القول فيها؛ فلنقل: إن الاسم كزيد، وأسد، وفرس. قد يرد فى الكلام يراد به الذات كقولك: زيد قائم، والأسد شجاع. وقد يرد يراد به التسمية ذاتها كقولك: أسد ثلاثة أحرف. ففى الأول يقال: الاسم هو المسمى بمعنى يراد به المسمى، وفى الثانى لا يراد به المسمى. ومن الورود الأول قولك: يا رحمان اغفر لى، وقوله (تعالى): "الرحمن علم القرآن"، ومن الورود الثانى قولك: "الرحمن وصف لله (تعالى). وأما (اسم) الذى هو ألف وسين وميم فقد يجرى فى لغة العرب مجرى الذات يقال: ذات، ونفس، واسم، وعين بمعنى. وعلى هذا حمل أكثر أهل العلم قوله (تعالى): "سبح اسم ربك الأعلى" وقوله (تعالى): "تبارك اسم ربك

(١) صحيح البخارى جـ٤/٢٧٦ كتاب التوحيد- باب قول الله (تعالى) وكان الله سميعاً بصيرا. صحيح مسلم بشرح النووى جـ٩/٧، ٨ كتاب الذكر، باب أسماء الله (تعالى) وفضل من أحصاها

ذى الجلال والإكرام" وقوله (تعالى): "ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم"، وعضدوا ذلك بقول لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

وقالوا: إن لبيداً أراد التحية[1]. وقد يجرى اسم فى اللغة مجرى ذات العبارة وهو الأكثر من استعمالها فمنه قوله (تعالى): "وعلم آدم الأسماء كلها" على أشهر التأويلات فيه، ومنه قول النبى (ﷺ): "إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة"، وعلى هذا النحو استعمل النحويون الاسم فى تصاريف أقوالهم. فالذى يتنخل من هذا أن الأسماء قد تجئ يراد بها ذوات المسميات، وفى هذا يقال: الاسم هو المسمى، وقد تجئ يراد بها ذواتها نفسها لا مسمياتها.

ومر بى أن مالكاً (رحمه الله) سئل عن الاسم: أهو المسمى؟ فقال: ليس به ولا هو غيره. يريد دائماً فى كل موضع، وهذا موافق لما قلناه"[2].

وبناء على هذا التحقيق الدقيق؛ فإن دخول الباء على الاسم فى البسملة من الضرب الذى أريد به المسمى وهو لفظ الجلالة أو الذات العلية، وأن العدول عن دخول الباء على المسمى كان لحكمة- على

(١) التحية: السلام المذكور فى البيت.

النحو الذى فصل فى مذهب الغزالى والسهيلى وابن القيم؛ ولما كانت غاية القرآن الأسمى إثبات التوحيد ونفى الشرك، ناسب ذلك بناء البسملة وهى أول آية فى القرآن على ما يقرر هذه الحقيقة ويؤكدها فى نفوس السامعين، ويرسخ ترجمتهم لها فى الظاهر والباطن، وهو ما يجسده دخول الباء على الاسم هكذا "بسم الله الرحمن الرحيم".

المحور الثانى- إضافة (اسم) إلى لفظ الجلالة دون أى من الأسماء الأخرى، ودلالته.

والمغزى من ذلك- فيما أرى- المبالغة فى الاستعانة بالله (تعالى)، والحث على العناية بها من وجه أوكد؛ ذلك أن فى لفظ الجلالة مزايا لا توجد فى غيره من الأسماء الحسنى منها:

١- ما ذكره الطبرى والخطابى ومن تبعهم من وقوع بقية الأسماء الحسنى تابعة له دون العكس من نحو قوله (تعالى): ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾[4]، وقوله (ﷺ) فيما رواه عنه أبوهريرة: "إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة. إنه وتر يحب

(١) البقرة. آية ١٤٣.
(٢) السورة. آية ٢٢٨.
(٣) آل عمران. آية ١٨٩.

الوتر"[1]، فقد دلت هذه النصوص على أن لفظ الجلالة أصل تسند إليه بقية الأسماء وتتبعه، ولم يرد عكس ذلك أن أسند اسم الجلالة إلى أى منها بأن قيل: "والغفور الله" أو "إن العزيز الحكيم الله" يقول النووى ناقلاً رأى الطبرى: "وقد روى أن (الله) هو اسمه الأعظم؛ قال أبوالقاسم الطبرى: وإليه ينسب كل اسم له فيقال: الرءوف الكريم من أسماء الله (تعالى) ولا يقال: من أسماء الرءوف الكريم الله"[2].

٢- ما جاء عن الغزالى من أن المقصد الأسمى للقرآن معرفة الله (تعالى) ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً؛ فدل ذلك على أن صفة الإلوهية هى المقصودة بالتوحيد والعبودية بالدرجة الأولى، وذلك قوله: "وقد ذكرنا لك أن معرفة الله (تعالى)، ومعرفة ذاته وصفاته هى المقصد الأقصى من علوم القرآن، وأن سائر الأقسام مرادة له، وهو مراد لنفسه لا لغيره فهو المتبوع، وما عداه التابع"[3].

٣- ما روى عن رسول الله (ﷺ) من أن لفظ الجلالة هو حصن المسلم الذى يحتمى به من أى سوء أو أذى؛ فعن عثمان بن عفان (رضي الله عنه) قال. قال رسول الله (ﷺ): "ما من عبد يقول صباح كل يوم

(١) صحيح البخارى جـ٤/٢٧٦ كتاب التوحيد- باب قول الله (تعالى) وكان الله سميعاً بصيرا. صحيح مسلم بشرح النووى جـ٧/٩، ٨ كتاب الذكر، باب أسماء الله (تعالى) وفضل من أحصاها.

(٢) المصدر والجزء والصفحة.

ومساء كل ليلة: باسم الله الذى لا يضر مع اسمه شيء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم ثلاث مرات لم يضره شيء"[1].

لتلك المزايا وغيرها مما اختص به لفظ الجلالة كان إضافة (اسم) إليه فى البسملة أنسب من غيره؛ لكون الإضافة إليه تدل لزوماً على إضافته لكل الأسماء، إذ هى له تبع فكأن معنى (بسم الله) بسم الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام.. إلى آخر الأسماء الحسنى على العكس من إضافته لأى منها فلا يكون بهذه القوة؛ لأنه لا يلزم عن إضافة الاسم إلى العزيز مثلاً هكذا "بسم العزيز" إضافته إلى لفظ الجلالة، ولما كانت البسملة أول ما يفتتح بها القرآن ناسب ذلك الإضافة إلى الاسم الأعظم؛ إشعاراً من أول الأمر بالتعلق بمن يختص بصفة الإلوهية التى عليها المعول فى تحصيل آثار الصفات الأخرى.

المحور الثالث- تقييد لفظ الجلالة بصفة (الرحمن) دون أى من الصفات الأخرى، ودلالته.

والمغزى من ذلك الارتقاء والإمعان فى إثبات الاستعانة بالله (تعالى) على تحصيل فعل قراءة القرآن، وإظهار أهميته، وحث المخاطبين على سرعة الامتثال إليه. ومرد ذلك إلى أن الوصف بالرحمانية أنسب وأوفق فى تجسيد الارتقاء؛ لما فيه من ثلاث مزايا:

الأولى- اختصاص صفة الرحمانية بالذات العلية دون غيرها من الذوات على العكس من الرحيمية وما سواها فيجوز إسناده ونسبته إلى

(١) الأذكار/ ٩، وانظر: العرف الوردي/ ٤١

غيرها؛ بدليل وقوع الرأفة والرحمة صفتين مضافتين إلى الرسول (ﷺ) فى قوله (تعالى): ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1]: وعليه يصح أن يقال: "الله الرحمان" ولا يصح "محمد الرحمان"، ويصح أن يقال: "الله الرحيم" و(محمد الرحيم) و"الله العزيز" و"محمد العزيز"؛ من ثم قالوا: إن (الرحمن) من صفات الذات و(الرحيم) من صفات الأفعال، يؤيده إنكار العرب للأولى دون الثانية على ما يشهد به قوله (تعالى): ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ..﴾[2]، ولما كانت صفات الذوات أصل فى وجود صفات الأفعال وأسبق؛ لاستحالة تعدى الثانية إلى الغير بدون وجودها فيمن صدرت عنه- لما كان الحال كذلك كان الأنسب فى البسملة الوصف بما يتعلق بالذات وهى الرحمانية دون ما يتعلق بالفعل من الرحيمية أو غيرها؛ لاشتراك الإلوهية والرحمانية فى الاختصاص بالله (تعالى)؛ ولا ريب أن مجئ البسملة على صورة اقتران هاتين الصفتين فيه إشعار بتعميق معنى الاستعانة فى النفوس، ومنع شك ما أن يخطر بها. عكس ما لو جاءت على صورة أخرى فى الوصفية كأن يقال: "باسم الله الرحيم" أو "باسم الله العزيز"؛ فإن البون شاسع بينها وبين الأولى فى مرتبة ترسيخ المعنى، وتغلغله فى سويداء القلوب. وإلى هذه المزية يشير أبومنصور الماتريدى بقوله: "ثم فى هذا أن اسم (الرحمن) هو المخصوص به ولا يسمى به غيره، و(الرحيم) يجوز تسمية غيره به؛

(١) التوبة. آية ١٢٨.
(٢) الفرقان. آية ٦٠.

فلذلك يوصف أن (الرحمن) اسم ذاتى و(الرحيم) فعلى، وإن احتملا أن يكونا مشتقين من الرحمة، ودليل ذلك إنكار العرب (الرحمن)، ولا أحد منهم أنكر (الرحيم)؛ حيث قالوا: ما ندرى ما الرحمان أنسجد لما تأمرنا، وذلك قوله: "قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا" يدل على أنه ذاتى لا فعلى، وإن كان الفعل صفة الذات؛ إذ محال صفته بغيره؛ لما يوجب ذلك الحاجة إلى غيره، ليحدث له الثناء والمدح، وفى ذلك خلق الخلق؛ لنفع الاستمداح، وهو عن ذلك متعال، بل بنفسه مستحق لكل حمد ومدح، ولا قوة إلا بالله"[1]. وتبعه ابن عطية[2]، وابن أبى الإصبع[3] فى إثبات هذه المزية.

الثانية- كون (الرحمن) أعم من (الرحيم) فى الدلالة على الرحمة؛ إذ الأولى تعم المؤمن والكافر؛ حيث غشى الفريقين بنعمه التى لا تحصى، وأما الثانية فتختص بالمؤمن فقط بدليل قوله (تعالى): ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾. وفيها يقول الماتريدى: "وقوله: الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. اسمان مأخوذان من الرحمة، لكن روى فيهما: رقيقان. أحدهما أرق من الآخر" إلى أن قال فى أحد وجهى تفسير الرحمة بمعنى اللطف: "أحدهما: التحقيق بأن اللطف بأحد الحرفين أخص وأليق وأوفر وأكمل، فذلك رحمته بالمؤمنين أنه يقال: رحيم بالمؤمنين على تخصيصهم

(١) تأويلات أهل السنة جـ١/١٨.
(٢) المحرر الوجيز جـ١/٩٦.
(٣) بديع القرآن/ ٥٤، ٥٥.

بالهداية لدينه؛ ولذا ذكر أمته وإن أشركهن في الرزق فيما يراهم غيرهم؛ ألا ترى أنه لا يقال: رحمان بالمؤمنين. وجائز القول: رحيم بهم. وكذلك لا يقال: رحيم بالكافرين مطلقاً. وبالله التوفيق"(١)، وتبعه البقاعي في ذلك(٢).

الثالثة- تخصيص صفة الرحمانية دون غيرها بمشاركة لفظ الجلالة في فعل الدعاء والسجود، إذ يقول (تعالى) في الأول: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ...﴾(٣). فجعل دعاء الرحمان معادلاً لدعاء لفظ الجلالة، وجعل ما سوى ذلك تابعاً لهما؛ إشارة إلى أن الرحمانية تلي الإلوهية في مرتبة السبق والتقدم على دونهما من الأسماء، ويقول في الثاني: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ...﴾(٤). فعلق السجود بالرحمن، كما علقه بلفظ الجلالة في قوله (تعالى): ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾(٥). ولم تقع هذه المشاركة مع غير (الرحمن) في القرآن، فلم يقل: (ادعوا الرحيم) أو (ادعوا الملك) أو (اسجدوا للرحيم) أو (اسجدوا للملك)؛ فلهذه- أيضاً- كان الوصف بالرحمانية أنسب وأليق.

وعلى هذا الأساس من الفرق بين الصفتين (الرحمن) و(الرحيم) اعتبر ابن عطية ما ذهب إليه أبوعبيدة بن المثنى من اتحادهما في

(١) تأويلات أهل السنة جـ١/١٧، ١٨.
(٢) نظم الدرر جـ٣/٤٩٨.
(٣) الإسراء. آية ١١٠.
(٤) الفرقان. آية ٦٠.
(٥) النجم. آية ٦٢.

المعنى فاسداً؛ لما يفضي إليه من مساواة (بسم الله الرحمن الرحيم) لـ "بسم الله الرحيم الرحمن" في المعنى، وزوال الحكمة من إيثار الأولى على الثانية؛ مما ينشأ عنه الطعن في بلاغة القرآن؛ إذ كأنه بذلك يجوز وضع (الرحيم) موضع (الرحمن)؛ وكله محال في حقه (تعالى)؛ إذ لا يقع منه شيء إلا الحكمة- كما أشرت من قبل- وفي هذا التفنيد يقول ابن عطية: "وقال بعض الناس: الرحمن، والرحيم بمعنى واحد كالندمان والنديم. نعم إنهما من فعل واحد، ولكن أحدهما أبلغ من الآخر"(١).

وعندي أنه تجن واتهام باطل؛ لسببين:

الأول- أن صدر كلام أبي عبيدة يشير إلى الفرق بين الصفتين؛ إذ قال: "الرحمن: مجازه ذو الرحمة، والرحيم: مجازه الراحم"(٢). أرأيت قوله: (ذو) في جانب الرحمن؟ أليس يشير بذلك إلى أنها أقوى من الثانية في الدلالة على الرحمة، وأنها؛ لذلك من صفات الذوات؟ يؤكد ذلك أن (ذو) بمعنى: صاحب.

الثاني- سوء فهمه لمراد أبي عبيدة بقوله: "وقد يقدرون اللفظين من لفظ واحد والمعنى واحد؛ وذلك لاتساع الكلام عندهم"(٣)؛ لأن مراده التنبيه على أن من مذاهب العرب الاشتقاق؛ لزيادة معنى مع الإبقاء على المعنى الأصلي، وليس الاتحاد التام، كما ذهب ابن عطية.

(١) المحرر الوجيز جـ١/٩٧، ٩٨.
(٢) مجاز القرآن جـ١/٢١.
(٣) المصدر والجزء والصفحة.

لهذين بطل الاعتراض وظهر مراد أبى عبيدة وقوله بالفرق.

المحور الرابع- تقديم صفة (الرحمن) على (الرحيم) ودلالته.

يكمن وراء هذا الترتيب أربع فوائد:

الأولى- مشاكلة الرحمانية للألوهية فى أمرين: الاختصاص بالله (تعالى) على النحو الذى أشرت فى التقييد، كون (الرحمن) أبلغ من (الرحيم) فى الدلالة على عموم الرحمة. عكس (الرحيم)؛ فلا يشبه لفظ الجلالة فى أى منهما. وهذا المعنى ما لحظه البقاعى وأشار إليه بقوله: "ولما كان اسم الجلالة علماً، وكان جامعاً لجميع معانى الأسماء الحسنى؛ أوليه (الرحمن)؛ من حيث إنه كالعلم فى أنه لا يوصف به غيره؛ ومن حيث إنه أبلغ من (الرحيم) فأولى الأبلغ الأبلغ؛ وذلك موافق لترتيب الوجود: الإيجاد، ثم النعم العامة، ثم الخاصة بالعبادة"(١).

ولا يقولن قائل: إن هذه المزية تكرار لما سبق فى التقييد؛ لأن مناط المعنى هناك على مادة الصفة وصيغتها، ومناطه هنا على ترتيبها تقديماً وتأخيراً؛ فلا تكرار.

الثانية- ما فى هذا المسلك من ذكر الخاص بعد العام؛ مما يؤذن بالمبالغة فى إثبات صفة الرحمة للمؤمنين؛ ذلك أنه لما قدم (الرحمن) أفاد ثبوتها للمؤمنين والكافرين، وكان ذلك بمنزلة السبب أو الدليل على ثبوتها للمؤمنين من باب أولى، وعكسه لا يشعر بذلك؛ لخلوه من تلك المزية. وإلى هذه الفائدة يشير الزمخشرى بقوله: "فإن قلت: لم قدم ما

(١) نظم الدرر جـ١/١٣.

هو أبلغ من الوصفين على ما هو دونه والقياس الترقى من الأدنى إلى الأعلى كقولهم: فلان عالم تحرير، وشجاع باسل، وجواد فياض؟ قلت: لما قال: "الرحمن" فتناول جلائل النعم وعظائمها وأصولها أردفه (الرحيم) كالتتمة والرديف؛ ليتناول ما رق منها ولطف"(١).

الثالثة- استمالة عقول السامعين، وترغيبهم فى الاستعانة؛ لأنه لما كانت الرحمانية أعظم كان البدء بها إلى الترغيب أدعى وإلى الامتثال أقوى، وهو ما لا يفيده عكسه.

الرابعة- المحافظة على استقامة النظم وتناغمه؛ بالمحافظة على الفاصلة؛ لما لها من أثر فى تقوية المعنى وتوكيده. وبيانه- هنا- أن البسملة آية من الفاتحة، وهى مبنية على فاصلة الياء والممدودة هكذا "العالمين، الرحيم، الدين..."؛ فناسب ذلك بناء البسملة على هذه الوتيرة، وذلل لا يتأتى إلا بتقديم (الرحمن) على النحو المذكور هكذا (بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم..." وخلافه يخل بالفاصلة؛ إذ تكون حينئذ فى البسملة ألفاً، وفى الفاتحة ياءاً، فتذهب قوة المعنى الناجمة عن اتفاق الفواصل.

وقد أشار شمس الدين بن الصائغ إلى ذلك وهو يذكر الأحكام التى تقع أواخر الآى مراعاة للفاصلة؛ حيث يقول: "تأخير الوصف غير الأبلغ

(١) الكشاف جـ١/٧.

عن الأبلغ. ومنه: الرحمن الرحيم"[1]. وقال الزمخشرى فى أثر رعاية الفاصلة على قوة المعنى: "لا تحسن المحافظة على الفواصل لمجردها إلا مع بقاء المعانى على سردها على النهج الذى يقتضيه حسن النظم والقوافى، فأما أن تهمل المعانى ويهتم بتحسين اللفظ وحده غير منظور فيه إلى مؤداه فليس من قبيل البلاغة"[2].

المحور الخامس – تقديم البسملة على العامل ودلالته.

اختلفوا فى ذلك على أقوال، فذهب الزمخشرى إلى أن المغزى منه قصر قراءة القرآن على الاستعانة بالله دون غيره من المخلوقات قصر صفة على موصوف؛ إذ التقدير: "بسم الله الرحمن الرحيم أقرأ القرآن"، بغرض الرد على خطأ المشركين فى عقيدتهم؛ إذ كانوا يستعينون بالأصنام على تحصيل أفعالهم فيبدأون بأسمائها قائلين: باسم اللات أفعل كذا.، وتصحيح هذا الاعتقاد بالتنبيه على توحيد الله (تعالى) فى كل الأفعال؛ بتقديم اسمه عليها، فالمعنى: لا أقرأ إلا باسم الله الرحمن الرحيم. أو: أقرأ باسم الله لا باسم غيره. وهذا مراده بقوله: "فإن قلت: لم تعلقت الباء؟ قلت: بمحذوف تقديره: بسم الله أقرأ أو أتلو؛ لأن الذى يتلو التسمية مقروء، كما أن المسافر إذا حل أو ارتحل فقال: بسم الله والبركات كان المعنى: بسم الله أحل، وبسم الله أرتحل، وكذلك الذابح. وكل فاعل يبدأ فى فعله ببسم الله كان مضمراً ما جعل التسمية مبدأ له.... فإن قلت: لم قدرت المحذوف متأخراً؟ قلت؛ لأن الأهم من الفعل

(١) معترك الأقران جـ١/٣٨.
(٢) المصدر والجزء/٥٢.

والمتعلق به هو المتعلق به؛ لأنهم كانوا يبدأون بأسماء آلهتهم فيقولون: باسم اللات، باسم العزى؛ فوجب أن يقصد الموحد معنى اختصاص اسم الله (ﷻ) بالابتداء، وذلل بتقديمه وتأخير الفعل كما فعل فى قوله: "إياك نعبد"؛ حيث صرح بتقديم الاسم؛ إرادة الاختصاص والدليل عليه قوله: "بسم الله مجراها ومرساها"[1].

وتابعه السكاكى[2]، والخطيب[3]، والسعد[4] فى هذه الفائدة؛ بيد أن الزمخشرى ومن تبعه لم يكشفوا عن نوع القصر. حقيقى أم إضافى؟؛ من ثم ذهب محمد بن عرفه الدسوقى إلى حمله على الإضافى؛ بغرض إفراد الخالق بتحصيل فعل القراءة، ونفى إشراك غيره معه؛ إذا كان الكفار يعتقدون أن تحصيل الفعل يتأتى بالله وبالأصنام وكأن لسان حالهم يقول: نستعين بالله، وبالأصنام، أو يغرض قلب اعتقادهم بقصر فعل القراءة عليه؛ إذا كانوا يعتقدون أن تحصيل الأفعال يتأتى بالأصنام فقط دون الله (تعالى) وكأن لسان حالهم يقول: باسم اللات أفعل كذا. وذلك قوله: "إن مقتضى الحال تقدير المتعلق مؤخراً؛ لإفادة الاهتمام باسمه (تعالى)؛ لأن المقام مقام استعانة بالله؛ ولإفادة القصر. والقصر إما قصر إفراد وهو يخاطب به من يعتقد الشركة، وقصر قلب ويخاطب به من يعتقد العكس، وقصر تعيين ويخاطب به الشاك. فالقصر هنا ينظر فيه

(١) الكشاف جـ١/٤، ٥.
(٢) مفتاح العلوم/١١٣.
(٣) شروح التلخيص جـ٢/١٥٠.

لأحوال المخاطبين فهو قصر قلب إن كانوا يعتقدون أن البركة تحصل بالابتداء بغير اسم الله (سبحانه وتعالى)، وقصر إفراد إن اعتقدوا أنها تحصل بالابتداء باسم الله وباسم غيره، وقصر تعيين إن شكوا فى حصول البركة بأى، لكن هذا الثالث بعيد"[1].

والراجح عندى حمله على الإفراد؛ لأن المشركين كانوا يقرون بوجود الله (تعالى)، وخلقه لهذا الكون كما يفيده قوله (تعالى): ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[2]، ويقولون فى عبادتهم للأصنام ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[3]؛ فدل ذلك على أنهم كانوا يعتقدون الشركة، وأن المعنى فى قصر القراءة على البسملة إفراده (تعالى) بالفعل ونفى إشراك غيره معه.

وصريح كلام الزمخشرى[4] السابق، ومن جاراه كالسكاكى[5]، والخطيب[6]، والسعد أن القصر فى التقديم يلازمه معنى الاهتمام بشأن المقدم، وهو هنا تصدير اسم الله (تعالى) فى كل الأفعال، وعبارة السعد أقوى فى هذا لشأن؛ حيث يقول: "ولهذا يقدر" المحذوف فى (بسم الله) مؤخراً نحو (بسم الله أفعل كذا)؛ ليفيد مع الاختصاص الاهتمام؛ لأن

(١) حاشية الدسوقى على المختصر. شروح التلخيص جـ٣/١.
(٢) العنكبوت. آية ٦١.
(٣) الزمر. آية ٣.
(٤) الكشاف. الجزء والصفحة.
(٥) المفتاح، والصفحة.
(٦) شروح التلخيص. الجزء والصفحة.

المشركين كانوا يدعون بأسماء آلهتهم... فقصد الموحد تخصيص اسم الله بالابتداء؛ للاهتمام والرد عليهم"[1].

وخالف ابن يعقوب المغربى ما ذهبوا إليه من دلالة تقديم البسملة على القصر والاهتمام؛ مستنداً فى ذلك إلى دليلين: الأول: أن دلالة تقديمها على القصر معول فيه- عندهم- على أن مقصود المشركين بقولهم" "باسم اللات أفعل كذا" قصر الفعل على آلهتهم. والحقيقة عنده أنه لم يكن مقصوداً ولا مرادا؛ لاعتقادهم ألوهية الخالق وابتدائهم باسمه فى بعض الأوقات؛ على ما يشهد به قوله (تعالى): "ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض" فلما بطل ما عولوا عليه بطلت دلالة القصر؛ تبعاً لذلك. الثانى: أنهم كانوا يعبدون غيره؛ ليقربهم إلى الله زلفى، وفى هذا معنى الاهتمام بالخالق، ولزم عنه بطلان إفادة تقديم البسملة معنى الاهتمام- كما ذهبوا.

بيد أنه جوز إمكان حمله عليها لكن باعتبارين آخرين، فيحمل على الاهتمام؛ من جهة أن المعنى المسوق له الكلام الاستشفاع بالآلهة لا لاستعانة بها فيكون تقديم البسملة لمعنى الاهتمام به (تعالى)، وعلى القصر من جهة أن المعنى المراد الرد عليهم فى اعتقادهم انبغاء الابتداء بها فيكون تقديم البسملة؛ للدلالة على قصر انبغاء الابتداء على اسم الله ونفى انبغاء الابتداء بها مع الله (تعالى). يقول محمد بن عرفه الدسوقى فى هذا الاعتراض:

"لكن العلامة اليعقوبى استشكل كون التقديم فى كلامهم (لعنة الله عليهم) للتخصيص حيث قال: إن تقديم المجرور فى قولهم: "باسم اللات أولاً. لا يصح أن يكون للاختصاص؛ لاعتقادهم ألوهية الله؛ ولابتدائهم باسمه فى بعض الأوقات من غير إنكار عليهم، ولا يصح أن يكون للاهتمام؛ لأنه أعظم الآلهة لأنهم قبحهم الله إنما يعبدون غيره؛ ليقربهم إليه، وهم بلغاء فصحاء، فما مفاد هذا التقديم اللهم أن يقال: التقديم للاهتمام؛ لأن المقام مقام الاستشفاع بتلك الآلهة. فإن قلت: الاختصاص حيث يقصد به الرد، وإنما يكون الرد على من زعم اختصاص الغير أو مشاركته فى الحكم فإذا قيل: بسم الله. وقصد الاختصاص كان المعنى: أنى أبتدئ باسم الله لا بغيره فقط أو لا بغيره معه، كما تعتقد أيها المخاطب، والمشركون لا يعتقدون أن المؤمنين يبتدئون بأسماء آلهتهم مع الله (تعالى)، ولا بأسماء آلهتهم بانفرادها؛ فكيف صح التخصيص هنا للرد على المشركين؟

قلت: الرد عليهم فى اعتقادهم أن الآلهة ينبغى أن يبتدأ بأسمائها كما حصر المؤمن الابتداء فى (اسم الله (تعالى) فهم منه أنه لا ينبغى لى أن أبتدئ مع الله (تعالى) باسم آلهتك أيها المشرك؛ لبطلانها وعدم نفعها فلا يتلفت إلى الابتداء بها؛ فالحصر بالنظر إلى نفى إمكان الابتداء بأسماء الآلهة وانبغائه لما عليه المخاطب لا بالنظر إلى اعتقاد الوقوع اهـ كلامه"[1].

(١) حاشية الدسوقى على مختصر السعد شروح التلخيص جـ٢/١٥٦.

والأقوى- عندى- مذهب الزمخشرى، ومن تبعه؛ لسببين:

١- أن الحمل على رأى الجمهور أولى.

٢- أن الاستشفاع بغير الله شرك، وإن لم يعتقد إشراكه مع الله فى تحصيل الأفعال، يؤيده قوله (تعالى) فى الرد على من استشفعوا: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ﴾[1]. وقوله: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي. فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ..﴾[2].

المحور السادس- بناء البسملة على العدد تسعة عشر ودلالته.

نظمت البسملة على تسعة عشر حرفاً رسماً، وثمانية عشر نطقاً، وقد تباينت مشارب العلماء فى الكشف عن مجيئها على هذا الوجه أو تخصيصها بهذا العدد دون غيره، وهل لذلك حكمة؟

ذهب بعضهم- فيما نقله ابن عطية والفخر الرازى إلى أن وراء هذا الوجه أربعاً:

الأولى- مناسبة العمل بها للنجاة من النار. وبيانه أن زبانية جهنم المكلفين بالتعذيب تسعة عشر كما دل عليه قوله (تعالى): ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾[3]، فلما كان عددهم كذلك؛ ناسبه صياغة البسملة على ذات العدد؛

(١) الزمر. آية ١١.
(٢) السورة. آية ١٣، ١٤.
(٣) المدثر. آية ٣٠.

تنبيها إلى أن كل حرف منها يدفع عذاب ملك، وعليه يدفع عذاب النار كله بالبسملة، ويحتمى بها كل من جعلها فى صدر أعماله.

الثانية- مناسبة هذا العدد الساعات المتبقية من عدد ساعات الليل والنهار بعد ساعات الصلوات الخمس؛ فالصلوات الخمس تكفر ذنوب الساعات الخمس التى تؤدى فيها، فتبقى التسعة عشر الأخرى مفتقرة إلى ما يكفر ذنوبها؛ فبنيت البسملة على ذات العدد؛ دلالة على أن كل حرف منها يكفر ذنوب ساعة؛ وبذلك تمحى جميع ذنوب الليل والنهار.

الثالثة- لفت عقول السامعين إلى أهمية، وعظيم فضلها بين آيات القرآن؛ لكونها- وهى الجملة الواحدة- تنجى من عذاب النار حتى لكأن فضل غيرها من العبادات إذا قيس بفضلها لا يعتد به.

الرابعة- حث السامعين وترغيبهم فى مزيد العناية بها بتصديرها فى كل أعمالهم، والعمل بمقتضى معانى مفرداتها؛ إذ هو السبيل إلى الفوز بالنعيم والنجاة من الجحيم.

وهذه الحكم هى ما دل عليه كلام ابن عطية والرازى دلالة حقيقية ولزومية. يقول الأول: "والبسملة تسعة عشر حرفاً. فقال بعض الناس: إن رواية بلغتهم أن ملائكة النار الذين قال الله فيهم: "عليها تسعة عشر" إنما ترتب عددهم على حروف (بسم الله الرحمن الرحيم) لكل حرف ملك، وهم يقولون فى كل أفعالهم: "بسم الله الرحمن الرحيم"؛ فمن هنالك هى قولهم، وبسم الله استضلعوا"[1]، ويقول الثانى: "قيل "بسم الله الرحمن

(١) المحرر الوجيز جـ١/٩١.

الرحيم" تسعة عشر حرفاً. وفيه فائدتان: إحداهما أن الزبانية تسعة عشر فالله (تعالى) يدفع بأسهم بهذه الحروف التسعة عشر. الثانية: خلق الله (تعالى) الليل والنهار أربعاً وعشرين ساعة، ثم فرض خمس صلوات فى خمس ساعات فهذه الحروف التسعة عشر تقع كفارات للذنوب التى تقع فى تلك الساعات التسعة عشر"[1].

وذهب البقاعى إلى أنها تفيد- إلى جانب ما سبق- مناسبة هذا العدد لعدد ركعات الصلوات الخمس مع ركعة الوتر؛ إذ تبلغ جملتها تسع عشرة ركعة، فبنيت البسملة على هذا العدد؛ دلالة على أن حرف منها يجلب رحمة كل ركعة من هذه الركعات. وهو المراد بقوله: "وكونها تسعة عشر حرفاً خطية، وثمانية عشر لفظية؛ إشارة إلى أنها دوافع النقمة من النار التى أصحابها تسعة عشر، وجوالب للرحمة بركعات الصلوات الخمس وركعة الوتر اللاتى من أعظم العبادات الكبرى"[2].

وما ارتأوه- عندى باطل؛ لسببين:

الأول: أنه مبنى على سوء فهم دلالة العدد تسعة عشر فى الآية، إذ حملوه على إرادة المعنى الوضعى له وهو التعيين والتحديد وعولوا عليه فى هذا الربط، وليس كذلك؛ لأن العدد الأصلى للملائكة أضعاف ذلك بدليل قوله (تعالى): "وما يعلم جنود ربك إلا هو"؛ فدل ذلك على أن تسعة عشر ليس التعبير الأصلى أو العدد الأصلى وإنما وقع موقعه، لا يراد به

(١) مفاتيح الغيب جـ١/١٥٦.
(٢) نظم الدرر جـ١/١٣، ١٤

معناه الوضعى، وإنما يراد به معنى فرعى ومقصد آخر يفهم من السياق وقرائن الأحوال- كأى تعبير آخر من المفردات والتراكيب-؛ يشهد لذلك رد الفخر الرازى على من حمل العدد تسعة وتسعين فى حديث "إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً.." على ظاهره وهو التعيين، وبنى عليه الحكم بانتفاء الزيادة عليها، واستناد الرازى فى ذلك إلى سوء فهم استعمال العدد فى الكلام؛ إذ العدد شأنه شأن أى من الألفاظ قد يطلق ويراد به معناه الوضعى الظاهر، وقد يطلق ويراد به معنى آخر يحدده السياق؛ واستعمال العدد فى الحديث من الضرب الثانى؛ فبطل استدلالهم بالحديث على انتفاء الزيادة على التسعة والتسعين، وذلك قول الرازى: "السؤال الثانى: قوله: "إن لله تسعة وتسعين اسماً" يقتضى حصر أسمائه فى هذا العدد... الجواب: أن تخصيص العدد بالذكر ليس فيه نفى الزائد عليه، ويحتمل أن يكون سبب التخصيص أمرين: أحدهما: لعل هذه الأسماء أعظم وأجل من غيرها. والثانى: أن لا يكون قوله: إن لله تسعة وتسعين اسماً كلاماً تاماً بل يكون مجموع قوله: إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة" كلاماً واحداً، وذلك بمنزلة قولك: إن لزيد ألف درهم أعدها للصدقة. وهذا لا يدل على أنه ليس من الدراهم أكثر من الألف"[1].

فالشاهد فى هذا أن شأن العدد فى آية المدثر شأن العدد تسعة وتسعين فى الحديث فى أنه لا يراد به تعيين العدد، وإنما يراد به معنى آخر- على النحو الذى بينه الرازى فتمخض عن ذلك أن انتفاء التعيين

(١) المصدر /٧٦.

فى آية المدثر يدل على انتفاء ما ذهبوا إليه من الربط بين آية النار والبسملة والفوائد الناجمة عنه.

ومع ذلك زلت قدم الفخر فوقع فيما وقعوا فيه من الربط المفتعل؛ حيث قال فى بيان حكمة العدد تسعة عشر فى آية المدثر: "إن عدد الزبانية فى الآخرة بحسب عدد القوى الجسمانية المانعة من معرفة الله خدمته النفس الناطقة، وتلك القوى تسع عشرة، خمس هى الحواس الظاهرة، وخمس أخرى هى الحواس الباطنة، واثنتان أخريان وهما الشهوة والغضب، وسبع هى القوى الطبيعية وهى: الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمولدة فجموع هذه القوى تسع عشرة وهى الزبانية الواقفة على باب جهنم البدن وعلى وفق هذه العدة زبانية جهنم الآخرة"[1].

الثانى- ما ذكره ابن أبى الأصبع المصرى فى معرض حديثه عن فن (الإبهام) وهو يرد على ما وقع فيه الفخر الرازى من متابعة أصحاب هذا المذهب فى التعسف، فقد رأى أن (تسعة عشر) فى الآية لا يراد بها ظاهرها وهو التعيين؛ لأن عددهم لا يحصى وإنما وقع موقع الأصلى؛ للدلالة على اختبار إيمان الكفار، ورسوخ إيمان المؤمنين، والإيجاز وقد عبر عن ذلك بقوله: "ما الحكمة فى جعل ملائكة العذاب على هذه العدة؟... وقد رأيت الإمام فخر الدين ابن الخطيب (رحمه الله تعالى) أجاب عنه فى شرح أسماء الله الحسنى بأن قال... ووجه الدخل عليه أنه

زم أن يكون لكل إنسان هذه العدة من الملائكة ولم تكن هى جملة عدة
ملائكة لجهنم... وعن لى جواب أسهل منه وأقرب وأنسب.... وهو أنه
مرية فى أن أهل النار يزيد عددهم على أهل الجنة... فلما أراد الحق
إخبار بعدة هذه الملائكة عدل عن ذكر عددهم الذى هو معلوم عنده...؛
لا يخرج الكلام؛ بكثرة الألفاظ، وطول الفضول عن حد البلاغة إلى
شارة يفهم منها أن عدد هذه الملائكة عدد لا يتناهى"[1].

الثالث- ما يفضى إليه تعليلهم من إبطال ما قرره الشرع وتواترت
ه الآيات والأحاديث فى تعليق الوقاية من النار على تطبيق التكاليف
شرعية لا البسملة وحدها- كما يدل عليه ظاهر كلامهم، وما جاء فى
أن الصلوات الخمس من أنها تكفر ذنوب الأربع والعشرين ساعة لا
خمس فقط- كما ذهبوا فعن أبى هريرة أنه سمع رسول الله (ﷺ)
ول: "أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً ما تقول؟
ك يبقى من درنه؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيئاً. قال: فذلك مثل
صلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا"[2].

وما ذكرته من الأسباب كاف لبطلان ربط العدد تسعة عشر فى
سملة به فى آية المدثر، وما بنى عليه من التوجيه البلاغى، فما ذلك
ضرب من التعسف الذى جرى وراءه كثير من الدارسين حتى صنفوا
ه المصنفات- مما ليس هذا موضع تفصيله. وحسبك فى تحقيق هذه

---

1) بديع القرآن/٣١٠- ٣١٢.
2) الجامع الصحيح جـ١/١٠٢ كتاب الصلاة. باب الصلوات الخمس كفارة.

المسألة ما ذكره ابن عطية فى التعقيب على هذا الاتجاه؛ حيث يقول:
"وهذه من ملح التفسير وليست من متين العلم، وهى نظير قولهم فى ليلة
القدر: إنها ليلة سبع وعشرين؛ مراعاة للفظة هى من كلمات سورة: إنا
أنزلناه، ونظير قولهم فى عدد الملائكة الذين ابتدروا قول القائل: ربنا
ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه. فإنها بضعة وثلاثون حرفاً.
قالوا: فكذلك قال النبى (ﷺ): "لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها
أيهم يكتبها أول"[1].

المبحث الثانى

البسملة فى مطلع سورة التوبة. حذفها ودلالتها

فى العام السادس الهجرى عزم الرسول (ﷺ) على زيارة البيت الحرام، ودعا الناس للخروج فخرج معه سبعمائة من المسلمين حتى نزلوا بالحديبية أسفل مكة، لكن قريشاً صدوه عن دخولها، فعزم الرسول (ﷺ) على قتالهم، فبايعه المسلمون على ذلك تحت الشجرة بيعة الرضوان، وحينئذ بعثت قريش سهيل بن عمرو تطلب عقد صلح مع المسلمين فوافق الرسول، وعقد معهم صلح الحديبية أبدى فيه الرسول تسامحاً عظيماً حتى غضب الصحابة، وكأن من محاور هذا الصلح تقرير هدنة بين الفريقين بوقف القتال عشر سنوات لا يعتدى أحدهما على الآخر، لكن قريشاً نقضوا عهدهم، إذ اعتدت بنو بكر من حلفهم على بنى خزاعة من حلف المسلمين، وأعانتهم بالسلاح فلاذت خزاعة بالحرم تحتمى فيه، فكان ذلك خيانة لله ورسوله؛ فأنزل الله على رسوله سورة التوبة فى شوال من العام التاسع للهجرة يدعوه فيها إلى نبذ عهوده معهم ومنعهم من دخول المسجد الحرام، وقتالهم كافة أينما كانوا على أن يمنحهم أربعة أشهر فمن كانت مدته أكثر أنزلها ومن كانت مدته أقل رفعها، وأمره بإعلان ذلك لهم فى موسم الحج من العام نفسه فأرسل با بكر أميراً على الحج وأسند إلى على تلاوة السورة عليهم، فقاما بذلك[1].

---

(١) انظر فى ذلك: صحيح البخارى جـ٢/ ٢٠٤ كتاب الجهاد. باب كيف

وقد ساق القرآن المعانى الواردة فى هذا الشأن بأسلوب جاءت فيه السورة على خلاف غيرها فى الافتتاح؛ إذ بنيت على حذف جملة "بسم الله الرحمن الرحيم" فقال (تعالى): ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ...﴾.

وقد تبارى العلماء وتجاذبت أقوالهم فى توجيه ورود مطلع السورة على هذا النحو من النظم، وبيان الحكمة منه، فجاءت على خمسة مذاهب

المذهب الأول- الإشعار بمشابهة سورة التوبة للأنفال فى مقصودها. وهو مذهب عثمان بن عفان، وأبى بن كعب. وبيانه أن الأنفال نزلت فى ذكر العهود بين المسلمين والمشركين فى عهد النبوة، وبيان طبيعتهم فى نقضها؛ إذ يقول (تعالى): ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾[1]، والتوبة فى إعلام المسلمين ببراءة الله ورسوله من جميع العهود المبرمة بينهم وبين المشركين ومنها عهد الحديبية، وحثهم على إشهار ذلك لهم وكما فى قوله (تعالى): ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ. فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ. وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ

جـ٢/ ٨٥١، ٨٥٢، معانى القرآن للزجاج جـ٢/ ٤٢٧، ٤٢٨، الكشاف جـ٢/ ٣٢، البحر المحيط جـ٥/٣٦٦، تفسير القرآن العظيم جـ٢/ ٣٧٣.

خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

ومعنى المشابهة هو مفهوم ما رواه الترمذى فى هذا الشأن من أن الرسول (ﷺ) توفى ولم يبين موضع براءة من سور القرآن على خلاف عهده مع السور الأخرى، فاجتهد عثمان أمير المؤمنين، وضمها إلى سورة الأنفال، وطوى البسملة؛ دلالة على مناسبتهما فى الغاية، وقد نقل ابن كثير هذه الرواية عن الترمذى؛ إذ يقول: "وإنما لم يبسمل فى أولها؛ لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة فى أولها فى المصحف الإمام بل اقتدوا فى ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضى الله عنه وأرضاه) كما قال الترمذى حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، ومحمد بن أبى جعفر وابن أبى عدى، وسهيل بن يوسف قالوا: حدثنا عوف ابن أبى جميلة أخبرنا يزيد الفارسى أخبرنا ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى وإلى براءة وهى من المئين وقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر (بسم الله الرحمن الرحيم) ووضعتموها فى السبع الطول. ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله (ﷺ) مما يأتى عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه شىء دعا بعض من يكتب فيقول: ضعوا هذه الآية فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا. وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها وخشيت أنها منها، وقبض رسول الله (ﷺ) ولم يبين لنا أنها

منها؛ فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر (بسم الله الرحمن الرحيم) ووضعتها فى السبع الطول، وكذا رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائى، وابن حبان فى صحيحه، والحاكم فى مستدركه من طرق أخر عن عوف الأعرابى، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه"[1].

ونقل هذا الأثر أيضاً برهان الدين البقاعى[2]، كما رواه بالمعنى أبو إسحاق الزجاج[3]، ومكى بن أبى طالب القيسى[4]، والزمخشرى[5]، والبيضاوى[6]، وفخر الدين الرازى[7]، والعز بن عبد السلام[8].

المذهب الثانى – الإيذان بمعنى طرد مشركى مكة وحرماتهم من رحمة الله (تعالى)، والوعيد بالقتال والمحاربة؛ بخيانتهم ونقضهم ميثاق الحديبية مع الرسول وأنصاره. وهو مذهب أمير المؤمنين على بن أبى طالب، وسفيان بن عيينة. وبيانه أن البسملة توحى بمعنى المبالغة فى سعة رحمة الله (تعالى)، والوعد بها، وبراءة توحى بعكس ذلك المبالغة فى انتقامه (تعالى) من المشركين الذين خانوا الله ورسوله، فلو بنى

(١) تفسير القرآن العظيم جـ٢/ ٣٧٣ .
(٢) مصاعد النظر فى مقاصد السور جـ١/ ٤٤٣ .
(٣) معانى القرآن جـ٢/ ٤٢٧ .
(٤) الكشف عن وجوه القراءات السبع جـ١/ ٢٠/ جـ٢/ ١٣٧ .
(٥) الكشاف جـ٢/ ١٣٧ .
(٦) حاشية الشهاب جـ٣/ ٢٩٦ .
(٧) مفاتيح الغيب جـ٥/ ٥٢١ .
(٨) اختصار النكت والعيون جـ٢/ ٦ .

النظم على ذكر البسملة فقيل: "بسم الله الرحمن الرحيم. براءة من الله ورسوله..." لأوهم الكلام خلاف المراد فأفاد الوعد برحمة المشركين كما توحى بإضعاف، وإضعاف قوة الغضب والوعيد بالعذاب الأليم فالنظم على الحذف يؤول إلى معنى: لقد خان مشركو مكة كل العهود فاستحقوا ألا يعاملوا بالسلم والرحمة، وإنما يعاملون بالقتال والشدة، وقد أمرتم بذلك فائتمروا. وهذا مفاد ما رواه الفخر الرازى عنهما فى هذا المضمار إذ يقول: "قال ابن عباس: سألت علياً (ﷺ): لم لم يكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) بينهما؟ قال: لأن (بسم الله الرحمن الرحيم) أمان، وهذه السورة نزلت بالسيف ونبذ العهود وليس فيهما أمان"[1]، وكذا رواه الزمخشرى[2]، والبيضاوى[3]، والعز بن عبد السلام[4].

واعترض على سفيان فى مناسبة حذف البسملة هنا للغرض المسوق له الكلام وهو الكتابة إلى أهل الحرب المشركين؛ بحجة أن الرسول (ﷺ) ذكر البسملة فى صدر رسائله التى كان يكتبها إلى أهل الحرب من نحو كسرى وقيصر وغيرهما؛ إذ يدل على بطلان ما ذهب إليه، ورده سفيان؛ مستنداً إلى أن المخاطبين فى السياقين – براءة، ورسائل الرسول (ﷺ) وإن اتفقا فى صفة كونهم أهل حرب إلا أنهما افترقا فى النوع فالرسول (ﷺ) كانت كتابته إلى الملوك فى ابتداء

(١) مفاتيح الغيب جـ٥/ ٢٢٢، جـ١، ١٥٦.
(٢) الكشاف جـ٢/ ١٣٧ .
(٣) حاشية الشهاب جـ٤/ ٢٩٦ .
(٤) اختصار النكت والعيون جـ٢/ ٦ .

دعوتهم إلى الإسلام؛ بدليل فتحه الرسائل بقوله: "والسلام على من اتبع الهدى"؛ فكان ذلك موجباً للتصريح بالبسملة، ترغيباً لهم فى اعتناق الإسلام ونبذ الكفر، بخلاف كتابة القرآن إلى المشركين؛ إذ كانت بعد فترة طويلة من الدعوة إلى الإسلام لا تقل عن ستة عشر عاماً، وعقد المواثيق بنبذ القتال مدة عشر سنوات ولكنهم خانوا؛ فناسب حالهم حذف البسملة؛ إشعاراً بحرمانهم من الرحمة بعد تكرار الدعوة؛ واستحقاقهم القتال؛ فمن خلال هذا التوضيح يظهر أن كل وجه – من الذكر والحذف – طابق موضعه، فيزول الإشكال، وإلى هذا الإشكال وتفنيده يشير الزمخشرى بقوله: "قيل: فإن النبى (ﷺ) قد كتب إلى أهل الحرب (بسم الله الرحمن الرحيم)؟ قال: إنما ذلك ابتداء يدعوهم، ولم ينبذ إليهم؛ ألا تراه يقول: سلام على من اتبع الهدى. فمن دعى إلى الله (عز وجل) فأجاب ودعى إلى الجزية فأجاب فقد اتبع الهدى، وأما النبذ فإنما هو البراءة واللعنة وأهل الحرب لا يسلم عليهم، ولا يقال: لا تفرق ولا تخف ومترس[1]، ولابأس هذا أمان كله"[2].

ووافق المبرد علياً وسفيان فى هذه الدلالة على ما رواه أبو إسحاق الزجاج بقوله: "أخبرنا بعض أصحابنا عن صاحبنا أبى العباس محمد بن يزيد المبرد أنه قال: "لم تقع(بسم الله الرحمن الرحيم)؛ لأن

(١) مترس: المترس: فارسية وهى خشبة توضع خلف الباب دعامة. والمثل كفاية عن الأمان وعدم القتال. لسان العرب جـ٥ مادة: ترس .
(٢) الكشاف جـ٢/ ١٣٧.

(بسم الله) افتتاح للخير، وأول براءة وعيد ونقض عهود؛ فلذلك لم تفتتح بـ(بسم الله الرحمن الرحيم) [1].

المذهب الثالث – انتفاء الحاجة إلى ذكر البسملة؛ لانتفاء سببه وداعيه وهو كون ما بعدها سورة مستقلة؛ إذ التوبة مع الأنفال سورة واحدة هى السابعة من السور الطول تبلغ آياتهما ستاً ومائتين، وما بعدها المئون، وذلك على قول بعض الصحابة، بحجة اتحاد السورتين فيما نزلتا من أجله وهو نقض المشركين عهودهم مع المسلمين، وحث المسلمين على نبذها ومحاربتهم أينما كانوا، ويشهد لهذا الاتحاد تكرار الدعوة إلى القتال فى الأنفال بالطريق الصريح تارة، وبالضمنى أخرى، فمن الأول قوله (تعالى): ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾[2] وقوله: ﴿وَقَتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ﴾[3] وقوله: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾[4]، ومن الثانى قوله (تعالى): ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ

(١) معانى القرآن جـ٢/٤٢٧، الكشاف جـ١/ ٢٠ .
(٢) الأنفال آية ١٥ .
(٣) السورة آية ٣٩ .
(٤) السورة. آية ٦٥ .

الْكَفِرِينَ﴾[1] وقوله ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[2].

وكذا الحال فى التوبة بصريح الأمر تارة وبالكناية عنه أخرى فمن الأول قوله (تعالى): ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾[3] وقوله: ﴿وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَنَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَنَ لَهُمْ...﴾[4] وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَفِقِينَ...﴾[5] ومن الثانى قوله (تعالى): ﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ...﴾[6].

فمن خلال تعاقب الحث على القتال فى السورتين يظهر أن عليه المعول فيهما؛ فلو ذكرت البسملة فقيل: ﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. بَرَاءَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ﴾ لأوهم – على مذهب هذا الفريق – خلاف المراد، وهو كون التوبة سورة مستقلة عن الأنفال، وليس كذلك عندهم؛ فكان الأنسب للمراد إيثار الحذف. وما ذكرته تفصيل قول الزمخشرى: "وقيل سورة

(١) السورة آية ٧، ٨ .
(٢) السورة آية ٦٠ .
(٣) التوبة. آية ٥.
(٤) السورة. آية ١٣ .
(٥) السورة. آية ٧٣ .
(٦) السورة. آية ١١١ .

الأنفال والتوبة سورة واحدة كلتاهما نزلت فى القتال تعدل السابعة من الطول، وهى سبع، وما بعدها المائون"[1].

المذهب الرابع – تقرير ماختمت به الأنفال من الترغيب فى مناصرة المؤمنين بعضهم بعضاً، والترهيب من نصر الكفار البتة؛ ذلك أن التوبة من الأنفال فى حكم تفصيل هذا المعنى وبيانه بالأدلة النظرية والتطبيقية .

يقول الرازى: "الوجه الرابع فى هذا الباب أنه (تعالى) ختم سورة الأنفال بإيجاب أن يوالى المؤمنون بعضهم بعضاً، وأن يكونوا منقطعين عن الكفار بالكلية، ثم إنه (تعالى) صرح بهذا المعنى فى قوله (براءة من الله ورسوله). فلما كان هذا عين ذلك الكلام وتأكيداً له، وتقريراً له لزم وقوع الفاصل بينهما؛ فكان إيقاع الفصل بينهما؛ تنبيهاً على كونهما سورتين متغايرتين، وترك كتابة (بسم الله الرحمن الرحيم) بينهما؛ تنبيهاً على أن هذا المعنى هو عين ذلك المعنى"[2].

المذهب الخامس– التنبيه على أن البسملة آية من القرآن، واحتج أصحاب هذا الرأى بأنه (تعالى) لعله علم أن الصحابة سيختلفون على ذلك؛ فأسقطها؛ ليكون ذكرها فى موضع وحذفها فى آخر دليلاً على أنها آية من كل سورة ومنها براءة. قال الرازى: "قال أصحابنا: لعل الله (تعالى) لما علم من بعض الناس أنهم يتنازعون فى كون (بسم الله

(١) الكشاف جـ٢/ ١٣٧، حاشية الشهاب جـ٤/ ٢٩٦ .
(٢) مفاتيح الغيب جـ٥/ ٢٢٢ .

الرحمن الرحيم) من القرآن؛ أمر بأن لا تكتب ههنا؛ تنبيهاً على كونها آية من أول سورة براءة، وأنها لما لم تكن آية من هذه السورة لا جرم لم تكتب؛ وذلك يدل على أنها لما كتبت فى أول سائر السور وجب كونها آية من كل سورة"[1].

هذا. وجمهور المحققين على تقوية وترجيح المذهب الثانى؛ لمشاكلته المعنى المسوق له الكلام فى سورة التوبة، فإليك أقوالهم:

الأول – قول أبى بكر الباقلانى: وقد ظهر توكيده له من خلال موقفه من رواية عثمان بن عفان الذى عليها المذهب الأول؛ إذ ردها، محتجاً بأنه مشكوك فى صحتها؛ حيث تفضى إلى الطعن فى حجية القرآن الكريم، وإعجازه لفظاً ومعنى، من جهة أنها تدل على أن ترتيب سورة التوبة ونظمها على حذف البسملة كان اجتهاداً من أمير المؤمنين عثمان بن عفان لا توقيفاً من الرسول (ﷺ) عن طريق الوحى؛ من ثم يستند إليه فى جواز مثل هذا الاجتهاد فى سائر السور القرآنية فيتعرض القرآن بذلك للزيادة والنقصان حسب أهواء البشر؛ لذا بطل التعويل على هذا الأثر، وصح التعويل على الرأى الثانى القائل بأن ترتيب التوبة أمر توقيفى كغيره من السور، وأن طى البسملة من أولها كذلك؛ لحكمة يقتضيها الغرض المسوق له الكلام. وفى ذلك يقول الرازى: "قال القاضى: يبعد أن يقال: "إنه (عليه السلام) لم يبين كون هذه السورة تالية لسورة الأنفال؛ لأن القرآن مرتب من قبل الله (تعالى)، ومن قبل رسوله

(١) المصدر والجزء والصفحة .

على الوجه الذى نقل، ولو جوزنا فى بعض السور ألا يكون ترتيبها من الله على سبيل الوحى لجوزنا مثله فى سائر السور، وفى آيات السورة الواحدة، وتجويزه يقرر ما يقوله الإمامية من تجويز الزيادة والنقصان فى القرآن؛ وذلك يخرجه عن كونه حجة بل الصحيح أنه (عليه السلام) أمر بوضع هذه السورة بعد سورة الأنفال؛ وحياً، وأنه (عليه السلام) حذف (بسم الله الرحمن الرحيم) من أول هذه السورة؛ وحياً"[1]، ونقله أيضاً قطب الدين الرازى[2]، وحذا الفخر الرازى حذوهما فى إبطال رواية أبى بن كعب للعلة ذاتها[3].

ومما يقرر فساد هذا المذهب وصحة ما ارتآه الباقلانى والرازى ما ساقه بعض المحققين لهذا الأثر من أدلة تقطع ببطلانه. وحسبى أن أسوق إليك بعضاً منها بما يناسب المقام، ثلاثة للشيخ أحمد شاكر، وواحد للدكتور أحمد محمد القاسم. على أن تنظر تفصيلها فى مظانها – إن شئت، فإليك بعضها بالترتيب .

الدليل الأول- الشك فى إسناد هذا الأثر؛ إذ يدور فى شتى الروايات على يزيد الفارسى، وهو مختلف فى تعيينه حيث عبر عنه باللقب: أهو يزيد ابن هرمز أم غيره؟ فذكر البخارى فى (التاريخ الكبير) إلى أنه ابن هرمز، وذكر فى (التهذيب) أنهم اختلفوا فقال ابن مهدى وأحمد بن حنبل: إنه هو، وأنكر يحيى بن سعيد قولهم؛ محتجاً بأن يزيد

(١) مفاتيح الغيب جـ٥/ ٥٢١ .
(٢) حاشية القطب على الكشاف جـ٢/ ٤٠٩ .
(٣) مفاتيح الغيب جـ٥/ ٥٢١ .

ارسى ليس واحداً؛ فلهذا الاضطراب فى تعيينه كان الشك فى صحة
ا الأثر. وفى ذلك يقول الشيخ شاكر: "فهذا يزيد الفارسى الذى انفرد
واية هذا الحديث يكاد يكون مجهولاً حتى شبه على مثل ابن مهدى،
حمد، والبخارى أن يكون هو ابن هرمز أو غيره، ويذكره البخارى فى
ضعفاء فلا يقبل منه هذا الحديث ينفرد"(١).

الدليل الثانى- ما يلزم عن القول بصحته من التشكيك فى صدق
رآن وسوره، وذلك قوله: "وفيه تشكيك فى معرفة سور القرآن الثابتة
تواتر القطعى قراءة وسماعاً وكتابة فى المصاحف"(٢).

الدليل الثالث- التشكيك فى إثبات البسملة فى أوائل السور؛
حتمال أن عثمان (ﷺ) كان يثبتها برأيه، وهذا من بعيد منه. وختم
شيخ شاكر هذا الدليل بقوله: "فلا علينا إذا قلنا: إنه حديث لاأصل له؛
طبيقاً للقواعد الصحيحة التى لا خلاف فيها بين أئمة الحديث"(٣).

الدليل الرابع- ويعزى إلى الدكتور أحمد القاسم ومؤداه اعتماد
ظم القرآن على هوى البشر لا على الوحى والتوقيف من الله ورسوله
دل عليه قول عثمان: "فمن ثم قرنت بينهما" يقول الدكتور: "أما قوله.
فمن ثم قرنت بينهما ولم أثبت (بسم الله الرحمن الرحيم) فإن (بسم الله
رحمن الرحيم) لا تخضع لهوى الكاتب يثبتها أو يحذفها كما يشاء أخرج
بو داود والحاكم وابن حبان وصححاه: عن ابن عباس (ﷺ) قال: كان

(١) حاشية (مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور) جـ١/٤٤٣.
(٢) حاشية (مصاعد النظر) جـ١/ ٤٤٤ .

النبى (ﷺ) لايختم سورة حتى ينزل (بسم الله الرحمن الرحيم) وفى رواية إذا نزلت (بسم الله الرحمن الرحيم) علموا أن السورة قد انقضت. قال الحافظ أبو شامة: هذا حديث حسن"(١).

وثمة أدلة أخرى أحيلك لمعرفتها إلى هامش كتاب (مصاعد النظر...) لبرهان الدين البقاعى(٢)، وكلها تظاهرت فى تقرير بطلان المذهب الأول القائل بحذف عثمان لها؛ للتنبيه على تشابه السورتين فى المقصود، وصحة المذهب الثانى القائل بدلالة حذف البسملة على رفع الأمان والوعيد بالعقاب .

الثانى – قوة البيضاوى. وقد ظهر تأييده له وتضعيفه لغيره من خلال نظمه للتعبير الدال عليه، إذ قال: "وإنما تركت البسملة فيها؛ لأنها نزلت لرفع الأمان، وبسم الله أمان، وقيل كان النبى (ﷺ) إذا إذ نزلت عليه سورة ....)(٣) فقد ذكر الشهاب فى تعليقه على عبارة البيضاوى أنها تفيد ترجيحه معنى رفع الأمان – وهو ما ذهب إليه على وسفيان – من وجهين:

١- تقديم البيضاوى معنى رفع الأمان على غيره من المعانى الأخرى؛ الأمر الذى يشعر بأهميته والتعويل عليه .
٢- حذف جملة القول فى أوله؛ إذ قال: "لأنها نزلت لرفع الأمان"، للتنبيه على قصر حذف البسملة على معنى رفع الأمان دون غيره؛

(١) المصدر والجزء/ ٤٤٧ .
(٢) المصدر والجزء من/ ٤٤٣- ٤٤٩ .
(٣) حاشية الشهاب جـ٤/ ٢٩٦ .

مبالغة فى تفخيمه وادعاء أن ما سواه من المعانى الأخرى مع احتماله إلا أنه لا يعتد به إذا قيس بمرتبته فى القوة بخلاف ما لو قال "قيل: لأنها ..." فإنه لا يدل على قوته؛ من جهة قصر حذفها على أى من المعانى المذكورة بلا تفضيل. وهذان الوجهان هما مجمل قول الشهاب: "قوله: "إنما تركت التسمية فيها؛ لأنها نزلت لرفع الأمان إلخ" أشار إلى وجه ترك كتابة البسملة فى هذه السورة والتلفظ بها دون غيرها، وللسلف أقوال ثلاثة أصحها هذا؛ ولذا قدمه، ولم يصدره بـ(قيل) [1].

الثالث – قول أبى السعود. وقد استند فى ذلك إلى كثرة أسماء سورة التوبة؛ فإن كثرتها تدل على أنها مستقلة تركت التسمية عند نزولها وذلك قوله: "ولها أسماء أخر: سورة التوبة، والمقشقشة والبحوث والمنقرة والمبعثرة والمثيرة والحافرة والمخزية والفاضحة والمنكلة والمشردة والمدمدمة وسورة العذاب؛ لما فيها من ذكر التوبة ومن التبرئة من النفاق والبحث والتنقير عن حال المنافقين، وإثارتها، والحفر عنها وما يخزيهم ويشردهم ويدمدم عليهم؛ واشتهارها بهذه الأسماء يقتضى بأنها سورة مستقلة وليست بعضاً من سورة الأنفال بادعاء واختصاص الاشتهار بالقائلين باستقلالها خلاف الظاهر فيكون حكمة ترك التسمية عند النزول نزولها فى رفع الأمان الذى يأبى مقامه التصدير بما يشعر ببقائه من ذكر اسمه (تعالى) مشفوعاً بوصف الرحمة كما روى عن ابن عيينة (رحمه الله)، لا الاشتباه فى استقلالها وعدمه كما

(١) المصدر والجزء والصفحة .

يحكى عن ابن عباس (رضى الله عنهما)، ولا رعاية ما وقع بين الصحابة (رضى الله عنهم) من الاختلاف فى ذلك؛ على أن ذلك ينزع إلى القول بأن التسمية ليست من القرآن، وإنما كتبت للفصل بين السور كما نقل عن قدماء الحنفية، وأن مناط إثباتها فى المصاحف وتركها إنما هو رأى من تصدى لجمع القرآن دون التوقيف، ولا ريب فى أن الصحيح من المذهب أنها آية فذة من القرآن أنزلت للفصل والتبرك بها وأن لا مدخل لرأى أحد فى الإثبات والترك وإنما المتبع فى ذلك هو الوحى والتوقيف، ولامرية فى عدم نزولها ههنا، وإلا لامتنع أن يقال فى الاستقلال اشتباه أو اختلاف فهو إما لاتحاد السورتين أو لما ذكرنا لا سبيل إلى الأول، وإلا لبينه (ﷺ)؛ لتحقق مزيد الحاجة إلى البيان؛ لتعاضد أدلة الاستقلال من كثرة الآيات وطول المدة فيما بين نزولهما؛ فحيث لم يبينه (ﷺ) تعين الثانى؛ لأن عدم البيان من الشارع فى موضع البيان بيان للعدم"[1].

الرابع – القطب الرازى؛ إذ يقول: "وأما قول ابن عيينة فهو يصلح لبيان حكمة ترك التسمية"[2]. أرأيت قوله: (فهو يصلح..) كيف أفاد بتقديم المسند إليه (هو) على الخبر الفعلى (يصلح..) معنى قصر حذف البسملة على قول ابن عيينة دون غيره قصراً ادعائياً؛ للمبالغة فى قوته – كالشأن فى عبارة البيضاوى السالفة؟

هذا. وما ارتآه هؤلاء فى تقوية المعنى الثانى (رفع الأمان والوعيد بالعقاب) صحيح من طرق أخرى:

(١) إرشاد العقل السليم جـ٤/ ٣٩ .
(٢) حاشية القطب على الكشاف جـ٢/ ٤٠٩ .

١- ما يلزم على رواية عثمان بن عفان – على فرض صحتها – من كون السورتين سورة واحدة، وهو مخالف لإجماع العلماء على أن سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة؛ يقول بدر الدين الزركشى: "واعلم أن عدد سور القرآن العظيم باتفاق أهل الحل والعقد مائة وأربع عشرة سورة كما هى فى المصحف العثمانى أولها الفاتحة وآخرها الناس"[١] بخلاف مذهب على وسفيان؛ إذ يدل على أنهما سورتان منفصلتان، وأن حذف البسملة من التوبة توقيف من الله (تعالى)، ولاريب أن الحمل على ما يوافق الإجماع أصح وأولى .

٢- اتساقه مع بقية السور فى الترتيب والبناء؛ فلما كان ترتيب السور وذكر البسملة فى أولها من الله (تعالى)؛ لحكمة، لزم أن يكون الحال كذلك فى ترتيب سورة التوبة وخلوها من البسملة أى لحكمة يقتضيها المعنى المراد .

٣- مشاكلة معنى الطرد من رحمة الله لقرائن الأحوال؛ ذلك أن آيات السورة كلها توحى بهذا المعنى، حيث تعد بمنزلة البراهين التى تقرره، بل أشد من ذلك فكل كلمة فى السورة تدل بالتصريح أو التلميح عليه؛ لأنها جاءت إما فى الحث على القتال كما يفيده قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ..﴾[٢] وقوله ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ..﴾[٣] وقوله: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ..﴾[٤]

(١) البرهان جـ١/ ٢٥١، الإتقان جـ١/ ٨٦ .
(٢) التوبة آية ٥ .
(٣) السورة. آية ٢٩ .
(٤) السورة. آية ١٣ .

وقوله ﴿قَاتِلُوهُمْ..﴾[١] وقوله ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ..﴾[٢] وإما فى جرائم المنافقين كما يفيده قوله: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ..﴾[٣] وقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾[٤] وغيرها، وكلها معان تنطق باستحقاق العقاب من رب الأرباب.

٤- دلالة المعنى الثانى على المعنى الرابع باللزوم والاقتضاء؛ من جهة أن رفع الأمان يستلزم إفادة موالاة المؤمنين بعضهم بعضاً وانتفاء موالاتهم الكفار على الإطلاق .

٥- أن ذكر البسملة وتصدير السورة بها لا يتنافى مع دلالة التوبة على تقرير الحكم الذى فتحت به سورة الأنفال؛ إذ هو قائم فى حالة الذكر؛ فثبت أن لحذفها معنى آخر خلاف التقرير والتوكيد.

٦- مواءمة معنى الوعيد وتناغمه مع دلالة التعبير بكلمة (براءة) دون غيرها من الأسماء الأخرى للسورة؛ إذ تدل على المبالغة فى إظهار غضب الله (تعالى) ورسوله وهو ما تفضى إليه معانى الأسماء الأخرى؛ فكأنها مقدمات للبراءة، وكذا مناسبته لتنكيرها؛ من حيث إفادته تفخيم الغضب وإظهار أنه بلغ حداً يعجز العقل عن إدراك ماهيته: أفلا يستدعى ذلك إسقاط البسملة لتناغم معنى رفع الرحمة مع شدة الغضب والوعيد؟

(١) السورة. آية ١٤ .
(٢) السورة. آية ٧٣ .
(٣) السورة. آية ٦١ .
(٤) السورة. آية ٦٧ .

١- بناء العرب كلامهم فى معرض الغضب على طى ما يشعر بضده، على حد ما جاء فى الخطبة البتراء لزياد بن أبيه؛ إذ خالف نهج التصدير بالحمد والثناء؛ فأسقطه فى هذا المعرض. يقول: "أما بعد: فإن الجاهلية الجهلاء، والضلالة العمياء، والغى الموفد لأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام...)[1].

(١) عيون الأخبار جـ٢/ ٢٤١، العقد الفريد جـ٤/ ١١٠، نثر الدر جـ٥/ ١٢، ١٣، صبح الأعشى جـ١/٢١٦ .

المبحث الثالث

البسملة فى قصة الطوفان. خصائصها وأسرارها البلاغية

أرسل الله نوحاً (عليه السلام) أول رسول إلى أهل الأرض، وأمره أن يدعوهم إلى الوحدانية وهجر الشرك والوثنية، ولكنهم كذبوه، وتربصوا له بشتى فنون العذاب هو ومن معه من المؤمنين فالاحتقار والجنون والطرد كما صوره القرآن فى قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾[1]، ومع هذه القسوة ظل يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فما ازدادوا إلا نفوراً واستكباراً على حد قوله (تعالى): ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً. فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلا فِرَاراً﴾[2].

وحينئذ أوحى الله إليه أن لا جدوى من دعوتهم، فتضرع نوح إلى ربه ملتمساً نصرته، وإنزال العقاب بهم ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾[3]، فاستجاب دعاءه وأمره أن يصنع سفينة ويحمل فيها المؤمنين وأن يأخذ فيها من كل نوع زوجين اثنين؛ فامتثل أمر ربه، وحين حقت كلمة الله دعاهم إلى الركوب فيها وأعلمهم أن نجاتهم معول فيها على الثقة بالله وتسميته ما داموا فيها بقول: "باسم الله" على نحو ما صوره القرآن فى

(١) هود. آية ٢٧ .
(٢) نوح. آية ٥، ٦ .
(٣) القمر. آية ١٠ .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

والكشف عن بلاغة البسملة فى هذا المعرض مبنى على بيان أقوالهم فى إعرابها، وعلاقتها بغيرها من أجزاء الكلام؛ ومن ثم أقول: جاءت أقوال العلماء فى هذا الشأن على ثلاثة وجوه:

الوجه الأول – كون (باسم الله) جاراً ومجروراً متعلقاً بمحذوف وقع حالاً. وهو مذهب الزمخشرى[2]، وبيان الحق[3] والفخر الرازى[4] وأبى حيان[5]، وأبى السعود[6].

بيد أنهم فى تقدير الحال وصاحبه على رأيين:

(أ) الأصل: "وقال اركبوا فيها متبركين أو قائلين"، وصاحبه ضمير المخاطبين فى (اركبوا) و(باسم الله) متعلق بالحال، و(مجريها ومرساها) إما ظرفان منصوبان على الزمانية أو المكانية متعلقاً به أيضاً، فمآل النظم: وقال اركبوا فيها متبركين باسم الله فى هذين

(١) هود. آية ٤١.
تنبيه. انظر فى هذا السياق المصادر الآتية: القرآن الكريم، البداية والنهاية لابن كثير جـ١ ، ١٠٢- ١٢٣، نهاية الأرب جـ١٣/ ٤٢- ٥٠
(٢) الكشاف جـ٢/ ٢١٦ .
(٣) كشف المشكلات وإيضاح المعضلات جـ١/ ٥٢٤ .
(٤) مفاتيح الغيب جـ٦/ ٣٤٩.
(٥) البحر المحيط جـ٦/ ١٥٥ .
(٦) إرشاد العقل السليم جـ٤/ ٢٠٩ .

الوقتين أو المكانين. والمعنى على هذا: حث سيدنا نوح (عليه السلام) من معه على الركوب قارنين الركوب بالتسمية وقت الجرى والرسو أو مكانهما، وإما مصدران ميميان وقع كل منهما مضافاً إلى ظرف زمان محذوف متعلق بالحال على حد قولهم: "جئتك مقدم الحاج" على أن التقدير: وقت قدومه. ومآل النظم على هذا: "وقال اركبوا فيها متبركين باسم الله وقت جريها ووقت رسوها. والمعنى على هذا: الحث على ركوب السفينة، قارنين الركوب بالتسمية زمان حصول الجرى وزمان حصول الرسو؛ فقوله (باسم الله) على هذا الرأى قيد لفعل التبرك أو القول أو بلفظ آخر: من متعلقات الجملة الإنشائية (اركبوا فيها). وإلى هذا الاحتمال فى (باسم الله) يشير الزمخشرى بقوله: "ويجوز أن يكون كلاماً واحداً أو كلامين، فالكلام الواحد أن يتصل (بسم الله) بـ(اركبوا) حالاً من الواو بمعنى اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين: "بسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها"؛ إما لأن المجرى والمرسى للوقت، وإما لأنهما مصدران كالإجراء والإرساء حذف منها الوقت المضاف كقولهم: خفوق النجم، ومقدم الحاج،

ويجوز[1] أن يراد مكاناً الإجراء والإرساء واتصابهما بما فى (بسم الله) من معنى الفعل[1] أو بما فيه من إرادة القول"[2]، وتبعه فى

(١) رد الشهاب قول الزمخشرى والبيضاوى بنصب (مجرى ومرسى على الظرفية الزمانية أو المكانية بالفعل (اركبوا)أو بما فى البسملة من معنى الفعل أو إرادة القول؛ لمخالفته المعنى المنوط به الكلام؛ إذ

ذلك بيان الحق[٣]، والفخر الرازى[٤]، وأبو حيان[٥]، والبقاعى[٦]، وأبو السعود[٧].

ب) الأصل: "وقال اركبوا فيها ملتبساً باسم الله إجراؤها، وإرساؤها" فالحال (ملتبساً)، وصاحبه ضمير السفينة فى (فيها) الواقع مفعولاً للركوب على أن المراد به الدخول. والمعنى: "وقال: ادخلوها..." على حد قوله (تعالى): "فادخلوها خالدين) و(باسم الله) متعلق بالحال. ومآل النظم: وقال اركبوا فيها ملتبسة باسم الله فى إجرائها وإرسائها. والمعنى على هذا: الحث على دخول السفينة شريطة أن يقرنوا إجراءها، وإرساءها باسم الله (تعالى)، ويعتقدوا ذلك. يقول الزمخشرى: "ويحتمل أن تكون غير مقتضية بأن تكون فى موضع الحال كقوله: وجاءوا بهم سكر علينا. فلا تكون كلاماً برأسه،

المعنى: "متبركين أو قائلين"وليس (اركبوا وقت الإجراء والإرساء أو فى مكانهما). حاشية الشهاب جـ٥/ ٩٨ .

١) المراد بمعنى الفعل أن (بسم الله) فى حكم: تسمون، ومعنى القول أنها فى حكم: تقولون. والمعنى فيهما: تسمون مكان الإجراء والإرساء أو تقولون (بسم الله) مكانهما .

٢) الكشاف جـ٢/ ٢١٦ .

٣) كشف المشكلات وإيضاح المعضلات جـ١/ ٥٢٤ .

٤) مفاتيح الغيب جـ٦/ ٣٤٩ .

٥) البحر المحيط جـ٦/ ١٥٥ .

٦) نظم الدرر جـ٣/ ٥٣١، ٥٣٢ .

٧) إرشاد العقل السليم جـ٤/ ٢٠٩ .

ولكن فضلة من فضلات الكلام الأول، وانتصاب هذه الحال عن ضمير الفلك. كأنه قيل: اركبوا فيها مجراة ومرساة بسم الله. بمعنى التقدير، كقوله (تعالى): ﴿ادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[١]، وتبعه فى ذلك أبو حيان[٢]، وأبو السعود[٣].

---

(١) الكشاف جـ٢/ ٢١٧ .

(٢) البحر المحيط جـ٦/ ١٥٥ .

(٣) إرشاد العقل السليم جـ٤/ ٢٠٩ .

تنبيه: رجح أبو حيان فى حال رفع (مجراها ومرساها) على الفاعلية من (ملتبساً) أو الابتدائية حمل النظم على كون صاحب الحال ضمير السفينة فى (فيها) هكذا "وقال اركبوا فيها ملتبساً باسم الله إجراؤها وإرساؤها" لا على كون صاحبه ضمير المخاطبين فى (اركبوا)؛ بحجة أن النظم على الأول يشتمل على ضمير يعود على صاحب الحال وهو الهاء فى (مجريها ومرساها)، وعلى الثانى لا يشتمل. ولما كانت صحة التأليف ومراعاة الأصول النحوية المشهورة من ضوابط فصاحة الكلام التى هى – أيضاً- من ضوابط بلاغته؛ اقتضى ذلك تخريج النظم على الوجه الأول؛ لتوفر الضابط.

وكلام الله أفصح الكلام وأبلغه؛ فحقيق أن يحمل على أبلغ الوجوه؛ إذ من المحال أن يوجد فيه خلل كائناً ما كان، ومن المحال – أيضاً- حمله على مافيه ضعف؛ لما يلزم عنه من الطعن فى بلاغة القرآن وإعجازه، وإسقاط التحدى به. وهذا البيان والتفسير هو مراد أبى حيان بقوله: "ولا يجوز مع رفع (مجريها ومرساها) على الفاعلية أو الابتداء أن يكون حالاً من ضمير (اركبوا)؛ لأنه لا عائد عليه فيما وقع حالاً" البحر المحيط جـ٦/ ١٥٥.

وبناء على ما سبق؛ فإن مقول القول فى قولـه (تعـالى): ﴿وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ جملة الأمر بمتعلقاتها قيلت دفعة واحدة قبل الركوب بغرض الحث على تحصيل الركوب مصحوباً بالتسمية أو تحصيله مصحوباً إجراؤها وإرساؤها بالتسمية والراجح حمل النظم على الرأى الثانى؛ إذ الإجراء والإرساء هما مناط الخوف من الهلاك فى هذا السياق وإلا فالركوب كغيره من كل الأفعال لا يتم إلا بأمر الله وقدره.

ويكمن وراء تقييد الإجراء والإرساء بالبسملة ثلاثة معان:

- لفت عقول المؤمنين إلى أن تحصيل الفطين لا يتحقق ولايؤتى ثمرته وهى النجاة من الهلاك إلا إذا كان مقروناً من أول الأمر بتحصيل السبب الأول واستحضاره ألا وهو ذكر الله (تعالى) والاستعانة به دون أدنى غياب أو تأخير، وملابسته سويداء قلوبهم وذلك بقول: بسم الله الرحمن الرحيم؛ إذ لاأمل فى النجاة بالتعويل فى تحصيلها على السبب الظاهر وهو إحداثهم الإجراء والإرساء عارياً عن السبب الأصلى قول: بسم الله الرحمن الرحيم.

وعندى أن ما ارتآه من الترجيح باطل؛ لأنه مبنى على سوء فهم النظم فى حال كون صاحب الحال ضمير المخاطبين؛ إذ يرى أن الحال فى (باسم الله إجراؤها وإرساؤها" خالياً من ضمير يعود على صاحبه. وليس كذلك؛ لأنه يشتمل على ضمير محذوف وقع فاعلاً لمصدرى الإجراء والإرساء والتقدير: ملتبساً إجراؤكم إياها، وإرساؤكم إياها؛ من ثم بطل الترجيح من هذه الجهة، وثبت أن الترجيح معول فيه على الوجه المناسب للمعنى المراد، وهو الوجه الإعرابى التالى بالحيثيات التى ستذكر فيما بعد .

٢- حث المؤمنين على تعظيم الذات العلية وهضم الذات البشرية بحيث لا يستقر فى القلب صورة الركوب ولا فاعلـه وإنمـا عظمـة الله وقدرته؛ فكل من سواه وإن كان موجوداً إلا أنه لكونـه محكومـاً بأمره فى حكم المعدوم .

٣- مزيد العناية بالبسملة والتعلق بها فى زمان الحدث من أوله إلـى آخره؛ يشهد لذلك قوله (تعالى) حكاية عن نصح نـوح ابنـه: ﴿لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾[1] وقولـه (تعـالى): ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾[2].

الوجه الثانى-كون (باسـم الله) خبـراً مقـدماً، و(مجريهـا ومرساها) مبتدأ مؤخراً، والجملة الاسمية (باسم الله مجريها ومرسـاها) منقطعة عن جملة الأمر (اركبوا فيها). ومعنى النظم على هـذا النحـو: إفادة أن سيدنا نوح (عليه السلام) دعا من معه إلى شيئين: الأول – حثهم على تحصيل ركوب السفينة. الثانى: الإعلام بأن جريهـا ورسـوها فعـلان مقصوران على السبب الأول أمر الله (تعالى) المعبر عنه بالبسملة فـى قوله: "باسم الله" دون أى من الأسباب الحسية والمعنوية الظاهرة؛ إذ هى لا تؤثر إلا بتأثير السبب الأول أمر الإله الواحد؛ فالنظم يؤول إلى معنى: وقال نوح لمن معه: اركبوا السفينة فلما ركبوا واستقروا قال لهم: "باسم الله مجريها ومرساها". وفى هذا الوجه يقول الزمخشـرى: "ويجـوز أن يكون كلاماً واحداً أو كلامين... والكلامان أن يكون (بسـم الله مجريهـا

(١) هود.آية ٤٣ .
(٢) القمر آية ١٤ .

ومرساها) جملة من مبتدأ وخبر مقتضبة أى بسم الله إجراؤها وإرساؤها. يروى أنه كان إذا أراد أن تجرى قال (باسم الله) فجرت، وإذا أراد أن ترسو قال: "بسم الله" فرست"(١)، وحذا حذوه الفخر الرازى(٢)، وأبو حيان(٣)، وأبو السعود(٤).

وبهذا يظهر الفرق بين الوجهين فى صورة النظم؛ إذ هو على الوجه الأول (القول) بالتعلق والاتصال، جملة إنشائية واحدة مع متعلقاتها قيلت قبل الركوب دفعة واحدة؛ حثاً على تحصيل الركوب متصلاً بالتسمية، وعلى الوجه الثانى (القول بالانفصال) جملتان: إنشائية فى قوله: "اركبوا فيها)، وخبرية فى قوله: "باسم الله مجريها ومرساها" قيلت كل منهما منفصلة عن الأخرى فالإنشائية قبل الركوب والخبرية بعده. وفيه يقول الزمخشرى: "فإن قلت : "ما معنى قولك: مقتضبة؟ قلت: معناه أن نوحاً (عليه السلام) أمر بالركوب ثم أخبر بأن مجراها ومرساها بذكر اسم الله أو بأمره وقدرته"(٥).

ويتمخض عن صورة نظم البسملة على هذا الوجه عدة فنون هى وسائل بيان الغرض المسوق له الكلام "إسناد الإجراء والإرساء إلى أمر

(١) الكشاف جـ٢/ ٢١٦ .
(٢) مفاتيح الغيب جـ٦/ ٣٤٩ .
(٣) البحر المحيط جـ٦/ ١٥٦ .
(٤) إرشاد العقل السليم جـ٤/ ٢٠٩ .
(٥) الكشاف جـ٢/ ٢١٦ .

الفن الأول – تقديم جملة الأمر بالركوب (اركبوا فيها) على جملة البسملة (باسم الله مجريها ومرساها) دون العكس (وقال باسم الله مجريها ومرساها اركبوا فيها إن ربى لغفور رحيم". وذلك لأربعة معان :

١- إثارة عاطفة تشويق وترغيب المخاطبين إلى معرفة أداة تحصيل النجاة والسلامة من الهلاك؛ ذلك أن تقديم الأمر بالركوب يبعث فى *النفس تلهفاً وتشوفاً إلى العلم بتلك الأداة التى تقى من شدائد* الركوب وأهواله، لا سيما فى هذا المشهد المروع الذى التقى فيه انهمار الماء من السماء مع تفجيره من الأرض، فإذا أعقب الأمر بالبسملة والنفس على هذه الصفة كان الإعلام بها ألذ وأمكن .

٢- المبالغة فى تحصيل الركوب وترسيخه فى نفوس المخاطبن؛ من جهة أن تقديم الركوب يثير الخوف، وإيلاءه بالبسملة يزيله، فهى من الركوب فى حكم العلة من المعلول أو الدواء من الداء .

٣- الارتقاء والإمعان فى تقرير الأمر بالركوب، والمسارعة إلى تحصيله؛ وذلك أن النظم على النسق المذكور فيه مزية اقتران الجملتين الخبريتين (باسم الله مجريها ومرساها) و(إن ربى لغفور رحيم) واتصالهما؛ ولما كانتا فى حكم الطتين للركوب كان وضعهما فى الذهن متصلتين متجاورتين – على النحو المذكور – أوكد وأقوى فى إزالة الخوف، وبث الأمن من وضعهما منفصلتين متفرقتين كل على حدة هكذا (باسم الله مجريها ومرساها اركبوا فيها إن ربى لغفور رحيم"

- دفع توهم خلاف المراد؛ إذ لو قيل (باسم الله مجريها ومرساها اركبوا فيها إن ربى لغفور رحيم) لتوهم أن البسملة متعلقة بالركوب وأنهما معاً كلام واحد غرضه الحث على تحصيل الركوب مقروناً بتحصيل البسملة وهو خلاف المراد؛ إذ المراد – كما سبق– إفراد الركوب بحديث، وإفراد أن جريها ورسوها بأمر الله بحديث؛ لذا كان الترتيب المذكور أنسب وأوفق .

الفن الثانى– الفصل بين جملة البسملة (باسم الله مجريها ومرساها)، وجملة الركوب (اركبوا فيها). والسر فى ذلك كمال الانقطاع؛ لاختلافهما فى الإنشائية والخبرية لفظاً ومعنى، وقد نبه الزمخشرى إلى هذا الفن حين عبر عنه بكلمة الاقتضاب فقال: "والكلامان أن يكون (بسم الله مجريها ومرساها) جملة من مبتدأ وخبر مقتضبة أى بسم الله إجراؤها وإرساؤها"[1] ثم فسر معنى الاقتضاب فقال: (فإن قلت: "ما معنى قولك: جملة مقتضبة؟ قلت: معناه أن نوحاً (عليه السلام) أمرهم بالركوب ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بذكر اسم الله أو بأمره وقدرته"[2]. ويؤيده قول الشهاب فى تفسير قول البيضاوى "جملة مقتضبة": "وأصل الاقتضاب فى اللغة الاقتطاع"[3]، وحذو الزمخشرى فى ذلك البيضاوى[4]

(١) الكشاف جـ٢/ ٢١٦ .
(٢) المصدر والجزء والصفحة .
(٣) حاشية الشهاب جـ٥/ ٩٨ .

والبقاعى[1]، ويجوز أن يكون المغزى من الفصل شبه كمال الاتصال؛ على أن جملة البسملة بمنزلة جواب عن سؤال أثارته جملة الأمر بالركوب فكأنهم لما سمعوا الأمر وركبوا بعث ذلك فى نفوسهم سؤالاً: كيف نركب وسط هذا الطوفان وفى خضم هذه الأهوال التى تنذر بالهلاك؟ وما السبيل إلى النجاة؟ فقال لهم: "باسم الله مجريها ومرساها"؛ تنبيهاً إلى أن النجاة من الهلاك إنما يتحقق بأمر الله وكلمته التى تتجلى فى قول "باسم الله"، وما ذلك على الله بعزيز، وأن فعلاً من الأفعال مهما عظم لا يتأبى على كلمته مصداقاً لقوله (تعالى): ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[2]، وعندى أن الحمل على الاستئناف البيانى أوقع وأنسب لاسيما فى هذا السياق؛ إذ فيه زيادة على الانقطاع مزيتان: تقرير مضمون جملة البسملة فى نفوس المخاطبين؛ بما يثيره الاستئناف من سؤال يشوق النفوس لمعرفة الجواب، فإذا جاءت البسملة تلقتها نفوسهم على نحو أمكن وأوكد، تكثير الفائدة؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى. وما من شك فى أن الحالة النفسية لهم تقتضى هذا الضرب من التوكيد، وإذا لم يستوجبه هلع الطوفان فما الذى يستوجبه؟ من هذه الجهة كان حمل الفصل على الاستئناف البيانى أولى، وأنسب .

الفن الثالث– إضافة (اسم) إلى لفظ الجلالة دون غيره من الأسماء الحسنى كأن يقال: "باسم الرحمن أو الرحيم أو الملك..."، وذلك لفائدتين :

(١) نظم الدرر جـ٥/ ٥٣١، ٥٣٢ .
(٢) النحل، آية ٤٠

١- المبالغة فى إثبات قدرة الخالق على وقايتهم من الهلاك، وبث معنى السكينة فى قلوبهم، واستبدال خوفهم أمناً، وإفادة هذه المعانى بصورة برهانية. وبيانه أن فى لفظ الجلالة مزية ليست فى غيره؛ إذ يدل بالتصريح على إثبات الألوهية وباللزوم على معانى الأسماء الأخرى من الرحمانية والرحيمية وغيرها، فكأنه أخبر بلفظ الجلالة عن الألوهية مشفوعة بمسوغاتها التى هى معانى الأسماء الأخرى بخلاف ما لو أضاف الاسم إلى الرحمن أو الرحيم... فإنه لا يدل إلا على معناه دون معنى الألوهية؛ من ثم كان إيثار لفظ الجلالة أنسب فى تقرير معنى القدرة على الرعاية وأمعن فى تعميق معنى الطمأنينة فى نفوسهم .

٢- مشاكلة لفظ الجلالة لنوع الحدث ومرتبته؛ من جهة أنه يقع فى مثل هذا الحدث ما يملأ النفس هلعاً وفزعاً تزيغ به الأبصار وتبلغ القلوب الحناجر؛ الأمر الذى يتواءم معه التعبير بما يشاكله فى مرتبة التفخيم والتعظيم؛ وهل ثمة أعظم من لفظ الجلالة؟ فكأن مآل المعنى: إذا كانت الأهوال التى تحيط بكم والروع الذى يمتلك أقطار نفوسكم قد بلغ غايته من الشدة والفظاعة فإنه لا يخشى من ذلك كله ولا من عاقبته؛ لأن قدرة الله أفخم وأعظم، ولأن الفرق بين عظمتها وعظمة الخالق كالفرق بين الخالق والمخلوق فى المرتبة، وليس أدل على ذلك من قوله (تعالى):﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[1].

الفن الرابع- حذف صفتى (الرحمن الرحيم) على خلاف (بسم الله الرحم الرحيم). وفى ذلك فائدتان:

١- كونه أنسب للغرض المسوق له الكلام؛ إذ الحدث ضخم يفتقر إلى قوة عظمى تنجى من عواقبه فكانت صفة الألوهية أهم ما تتعلق به النفس فى تحقيق الثقة والاطمئنان .

٢- الاستعاضة عن الصفتين بجملة ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ للمبالغة فى إثبات الرحمة لعباده المؤمنين .

الفن الخامس—تقديم المسند على المسند إليه؛ إذ قال: "باسم الله مجريها ومرساها" ولم يقل على الأصل: "مجريها ومرساها باسم الله".

ذكره الفراء[1]، ومكى القيسى، إذ يقول: "قوله: "بسم الله مجراها ومرساها" فى موضع رفع على الابتداء، ومرساها عاطفة عليه، والخبر (بسم الله) والتقدير: بسم الله إجراؤها وإرساؤها"[2]. والمغزى من التقديم إفادة قصر الجرى والرسو على سبب واحد وهو الذات العلية دون أى من الأسباب والقوانين البشرية قصر موصوف على صفة قصراً حقيقياً تحقيقياً؛ تقريراً لمضمون الكلام فى نفوس المخاطبين؛ فكأن المعنى: ما جريها ورسوها إلا باسم الله أو جريها ورسوها باسم الله لا باسم غيره، أضف إلى التقرير فائدة الإيجاز؛ حيث عبر عن حكمين بجملة واحدة، وكان يحتاج فى التعبير إلى جملتين مثبتة ومنفية فيقال: "مجريها

---

(١) معانى القرآن جـ٢/ ١٤ .

(٢) الإغفال فى إعراب القرآن/ ٩٨ .

رساها باسم الله، وليس باسم غيره". ولو جاء النظم بلا تقديم هكذا ريها ومرساها باسم الله" لما أفاد هاتين الفائدتين. وقد ألمح الرازى ما فى قوله: "المعنى الثانى: يدل على أنه لما ركب السفينة أخبر م بأن السفينة ليست لحصول النجاة بل الواجب ربط الهمة وتعليق ب بفضل الله (تعالى)، وأخبرهم أنه(تعالى) هو المجرى والمرسى"[1] أرأيت قوله: "فإنه هو المجرى والمرسى لها" كيف كنى به، تملاً على تعريف الطرفين، وضمير الفصل عن سمة التقديم ودلالته ى القصر – على النحو الذى فصلت؟

الفن السادس – ذكر المسند إليه، إذ قال: "باسم الله مجريها رساها" دون حذفه؛ اعتماداً على القرينة الحالية هكذا (باسم الله)، لك لفائدتين:

- التصعيد والارتقاء فى قصر الجرى والرسو على البسملة، وترسيخه فى عقول المخاطبين؛ من جهة أن التصريح بالمسند إليه مع العلم به عن طريق لقرينة فى حكم تكرار الإعلام به مرة بالطريق الفرعى طريق القرينة، وثانية بالطريق الأصلى اللفظ الموضوع له، ومجئ النظم على الحذف لا يدل على ذلك؛ لخلوه من مزية التكرار .
- مراعاة حسن النظم واستقامته؛ بالمحافظة على الفاصلة فى جملتى الركوب والبسملة؛ ذلك أن فى الذكر سمة اتفاق الجملتين فى حرف

الهاء الممدودة هكذا "اركبوا فيها، باسم الله مجريها ومرساها" بخلاف الحذف لو قيل: "اركبوا فيها باسم الله"؛ إذ يفقد النظم هذه السمة التى بفقدها يذهب حسن النظم ويوصف بالاضطراب؛ لاختلاف الجملتين فى الفاصلة حيث تختم الأولى بالألف الممدودة والثانية بالهاء .

وقد يقال: ما الحكمة فى سوق جملة البسملة مؤكدة بتقديم المسند، وذكر المسند إليه مع أن المخاطبين جاهلون بمضمونها؛ فكان المناسب أن يقال: "باسم الله" على أن الأصل "مجريها ومرساها باسم الله"؟ والجواب أن الخبر هنا جاء على خلاف الظاهر؛ بتنزيلهم منزلة الشاكين فى الحكم؛ لما سبقه من معنى فى قوله (اركبوا فيها) يثير فى نفوسهم تشوفاً وتطلعاً إلى معرفة الخبر لا سيما إذا عرفنا أن الإنسان فى هذا السياق تطبق عليه ظلمات الخوف والهلع؛ الأمر الذى استدعى سوق الخبر على النحو المذكور؛ تثبيتاً له فى عقولهم، وحثاً على تلقيه من أول وهلة تلقى الموقن به المتغلغل صدقه فى سويداء قلبه؛ فتلك فائدة ما كانت لتتحقق لولا مجئ النظم على هذا الوجه .

الفن السابع – الاحتراس والتكميل فى ذكر الرسو إذ قال: "مجريها ومرساها" ولم يقتصر على الجرى فقط فيقال: "باسم الله مجريها" لكونه مكمن الخطر والهلاك .

ويكمن وراء هذا الوجه معنيان:

١- الاحتياط؛ لدفع توهم خلاف المراد، إذ لو قيل: "باسم الله مجريها" لاحتمل أن يتوهم أن المراد قصر الجرى على الله دون قصر الرسو أيضاً فيأتى الاطمئنان من جهة الأول دون الثانى؛ فآثر ذكره – وإن كان قصر الجرى على الله يدل على قصر الرسو من باب أولى –؛ دفعاً لهذا الإيهام وتوكيداً لعموم حكم الله لكل الأفعال صغيرها وكبيرها. عظيمها وحقيرها.

٢- المبالغة فى معنى الاطمئنان وإزالة الخوف؛ من جهة أن النفس فى مثل هذا الحال قد يتسرب إليها الخوف وتتخيله أثناء الوقوف؛ فذكره؛ إشعار بعموم رعاية الله له كالجرى على حد سواء .

الفن الثامن – تقديم الجرى على الرسو فى قوله: "مجريها ومرساها" دون العكس هكذا "مرساها ومجريها". وذلك لفائدتين:

١- مناسبة اللفظ للمعنى فى الترتيب؛ فإن السفينة تبدأ بالسير فى البحر ثم تنتهى بالرسو على ساحله .

٢- أهمية الجرى لدى المخاطبين؛ فمعلوم أن الجرى أسبق فى نفوس راكبى السفينة وأقوى فى إثارة الخوف من الرسو؛ لما أن الأول يحصل فى عمق البحر وخضم الماء فيكون مظنة الخطر والهلاك، والثانى على ساحله بجوار البر فيكون مظنة الأمان؛ فشاكل ذلك تقديم ما كان مظنة الهلاك وهو الجرى؛ لكونه أليق وأوفق لحال السامعين؛ ولهذا المعنى اقتصر القرآن فى إثبات قدرة الله (تعالى)، وفضله على عباده ووجوب الشكر فى هذا الشأن على فعل الجرى

فى كل المواطن وذلك فى قوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾[١] وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾[٢] وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ..﴾[٣] وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ﴾[٤] وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ..﴾[٥] وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا..﴾[٦] وقوله: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾[٧].

فكل هذه الشواهد تؤكد تعلق الخوف بالجرى، وبالتالى مناسبة تقديمه فى قوله: "مجريها ومرساها" لهذا الحال .

الوجه الثالث- وهو مذهب الفراء. ومفاده أن (باسم الله مجريها ومرساها) جملة خبرية منقطعة عن الأولى مبنية على حذف الفعل وفاعله. والتقدير: أبدأ باسم الله مجريها ومرساها" و"مجريها

---

(١) هود. آية ٤٢ .
(٢) إبراهيم آية ٣٢ .
(٣) الحج. آية ٦٥ .
(٤) الروم. آية ٤٦ .
(٥) الجاثية. آية ١٢ .
(٦) القمر آية ١٤ .
(٧) الرحمن. آية ٢٤

ومرساها" مجرور لفظاً بجر محذوف تقديره: فى مجريها وفى مرساها. منصوب محلاً على أنه فى موضع المفعول به للفعل المحذوف (أبدأ)؛ إذ المعنى: أبدأ باسم الله إجراءها وإرساءها. واستدل بمجئ مثله عند العرب؛ فقد سمع من يقول: الحمد لله سرارك، وإهلالك. بالنصب على المفعولية باعتبار المعنى؛ إذ المعنى: أحمد لله سرارك وإهلالك. وسمع غيره: الحمد لله ما إهلالك إلى سرارك؛ فدل ذلك على صحة تخريج (مجريها ومرساها) فى البسملة على الجر باعتبار اللفظ، وعلى النصب باعتبار المعنى. وفى ذلك يقول: "وإن شئت جعلت (بسم الله) ابتداء مكتفياً بنفسه. كقول القائل عند الذبيحة أو عند ابتداء المأكل وشبهه: بسم الله. ويكون (مجريها ومرساها) فى موضع نصب يريد: بسم الله فى مجراها وفى مرساها. وسمعت العرب تقول: "الحمد لله سرارك، وإهلالك. وسمع منهم: الحمد لله ما إهلالك إلى سرارك. يريدون: ما بين إهلالك إلى إسرارك"[1].

هذا. وحمل البسملة على الوجه الثانى القائل بأنها جملة اسمية مقتضبة عما قبلها أقوى وأرجح؛ لمزايا عدة:

١- الإشعار بتفخيم الغرض المسوق له الكلام وهو الاستعانة بالله (تعالى) وحده، وإظهار أهميته، وحث المخاطبين على كمال العناية به؛ ومرده إلى أن ثمة فرقاً فى المعنى بين أن تفرد الغرض بحديث خاص، وبين أن تشركه وتدمجه مع غيره فى حديث عام؛ لأنه

على الطريق الأول أهم وأحوج إلى العناية؛ لذا كان حمل البسملة على أنها قول مستقل أنسب وأولى من كونها جزءاً من قول عام .

٢- دلالة صريح القرآن والسنة على أن ذكر الله والاستعانة به ودعاءه لا يحصل إلا بعد ركوب أداة السفر، واستقرار الراكب عليها، ومن ذلك قوله (تعالى): ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ. لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾[2]، عن عبد الله بن عمر (رضى الله عنهما) أن رسول الله (ﷺ) كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر كبر ثلاثاً، ثم قال: "سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين. وإنا إلى ربنا لمنقلبون. اللهم إنا نسألك فى سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى..." [3]. فقد دلت الآيات والأحاديث على أن حصول الدعاء معلق على حصول الركوب أى متأخر عنه لا مصاحب له كما يفيده التعبير بـ(إذا) فى العنكبوت، والحديث، والتعبير بالاستواء و(ثم) فى الزخرف فجعل الدعاء، والذكر بعد الركوب والاستواء قولاً مستقلاً مخصوصاً بحديث وحده

---

(١) العنكبوت. آية ٦٥ .
(٢) الزخرف. الآيات من ١٢- ١٤ .
(٣) صحيح مسلم بشرح النووى جـ/ كتاب المناسك .

٣- ما حكاه أبو السعود من أن سيدنا نوحاً حمل فيه ما أمر به من الأزواج وقال للمؤمنين: "اركبوا فيها فركبوا"، وهذا مشهد يقتضى أن يوجه إلى الراكبين حديثاً خاصاً بأداة النجاة (باسم الله مجريها ومرساها) يقول: "وقال" أى نوح (عليه السلام) لمن معه من المؤمنين كما ينبئ عنه قوله (تعالى): إن ربى لغفور رحيم، ... ولعل ذلك بعد إدخال ما أمر بحمله فى الفلك من الأزواج كأنه قيل: فحمل الأزواج أو أدخلها فى الفلك وقال للمؤمنين (اركبوا فيها) [١].

٤- ما روى من أن سيدنا نوحاً كان إذا أراد السير قال: "باسم الله مجريها" فتسير، وإذا أراد الوقوف قال "باسم الله مرساها" فتقف؛ من هنا كان الأنسب حمل قوله (باسم الله مجريها ومرساها" على ما يناسب فعله من كونه كلاماً وقولاً مستقلاً عن جملة (اركبوا فيها"[٢].

٥- ما حكاه الرازى من أن نوحاً لما ركب السفينة قال: "بسم الله مجريها ومرساها" فوجد النجاة بنصف هذه الكلمة، فمن واظب على هذه الكلمة لا يحرم من النجاة[٣].

٦- استشهاد الزمخشرى بتقديم (باسم الله) فى هذا الموضع على تقديمها فى مطلع القرآن على العامل المقدر فى إفادة القصر يقول: "فإن قلت: لم قدرت المحذوف مؤخراً؟ قلت: لأن الأهم من الفعل

(١) إرشاد العقل السليم جـ٤/ ٢٠٩.
(٢) اختصار النكت والعيون جـ٢/ ٩٤.
(٣) مفاتيح الغيب جـ١/ ١٥٣.

والمتعلق به هو المتعلق به؛ لأنهم كانوا يبدءون بأسماء آلهتهم فيقولون: باسم اللات وباسم العزى، فوجب أن يقصد الموحد معنى اختصاص اسم الله – عز وجل- بالابتداء، وذلك بتقديمه وتأخير الفعل كما فعل فى قوله: "إياك نعبد) حيث صرح بتقديم الاسم؛ إرادة الاختصاص، والدليل عليه قوله: "بسم الله مجراها ومرساها"[١].

٧- حث الرسول (ﷺ) أمته على أن يقولوا بعد ركوب السفينة: "باسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم"؛ فقد جاء فى كتاب ابن السنى عن الحسين بن على (رضى الله عنهما) قال: قال رسول الله (ﷺ): "أمان لأمتى من الغرق إذا ركبوا أن يقولوا باسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم. وما قدروا الله حق قدره) الآية"[٢]. فقد دل ذلك على أن(باسم الله مجريها ومرساها) فى قول نوح جملة مستقلة قيلت بعد تحصيل الركوب .

٨- المبالغة فى الفائدة وتكثيرها؛ وقد اتفقوا على أن الكلام إذا تردد بين وجهين أحدهما أكثر إفادة من الآخر، فالحمل عليه أولى، ويشهد لذلك تقوية الزمخشرى قراءة فتح همزة (أن) فى قوله (تعالى): ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ على قراءة الكسر؛ لما فى قراءة الفتح من زيادة الفائدة بتقدير خبر محذوف تقديره: فحق أو فواجب أن لله خمسه يقول: "فأن لله" مبتدأ خبره محذوف تقديره فحق أو فواجب أن لله خمسه. وروى الجعفى عن أبى عمرو فإن لله بالكسر

(١) الكشاف جـ١/ ٥ .
(٢) الأذكار للنووى/ ٢٣٢، مصاعد النظر جـ٢/ ١٨١.

وتقوية قراءة النخعى فلله خمسه، والمشهورة آكد وأثبت للإيجاب، كأنه قيل: فلابد من ثبات الخمس فيه ولا سبيل إلى الإخلال به والتفريط فيه؛ من حيث إنه إذا حذف الخبر واحتمل غير واحد من المقدرات كقولك: ثابت واجب حق لازم وما أشبه ذلك كان أقوى لايجابه من النص على واحد"[1]. وأوكد المرجحات وأشملها ما ذكره العز من قاعدة كلية قال فيها: "وقد يتردد بين محامل كثيرة يتساوى بعضها مع بعض، ويترجح بعضها على بعض. وأولى الأقوال ما دل عليه الكتاب فى موضع آخر والسنة أو إجماع الأمة أو سياق الكلام، وإذا احتمل الكلام معنيين وكان حمله على أحدهما أوضح وأشد موافقة للسياق كان الحمل عليه أولى"[2].

(١) الكشاف جـ٢/ ١٢٦ .

المبحث الرابع

البسملة فى رسالة سليمان إلى بلقيس. خصائصها وأسرارها

بعد أن توفى سيدنا داود (عليه السلام) بعث الله ابنه سيدنا سليمان، خلفاً له على بنى إسرائيل وأعطاه الملك والنبوة مثل أبيه، فسخر له الجن والإنس والطير والرياح تأتمر بأمره، وتفهم منه ويفهم منها؛ وذلك قوله (تعالى): ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾[1].

وكان من شأنه أنه تفقد الطير يوماً فوجد الهدهد غائباً فتوعده بالعقاب إلا بعذر، فلما جاءه أخبره أنه كان بمدينة سبأ باليمن فوجد ملكة هناك تدعى (بلقيس) تحكم قومها، وهى وقومها كفرة وثنيون يعبدون الشمس من دون الله، فأراد اختباره فأرسل معه كتاباً إليها يدعوها فيه إلى ترك عبادة الأوثان وبحثها على عبادة الواحد الديان، فلما ذهب ألقاه على سريرها فجمعت الملأ من قومها وقرأته عليهم وقالت، كما حكى القرآن الكريم: ﴿قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ. إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

وقد كانت البسملة واسطة العقد فى هذه الرسالة، حيث نظمها القرآن الكريم بأسلوب المعجز، لتكون أداة بيانية فى هذا السياق، مضمناً إياها ضروباً من الفنون التى صورت مقاصد النفوس، وأصداء المشاعر والأحاسيس؛ بما يشهد بإعجازه.

(١) النمل آية ١٥

فإليك بيانها .

الفن الأول – الفصل بين جملة (إنى ألقى إلى كتاب كريم) وجملة (إنه من سليمان...)، لشبه كمال الاتصال؛ ذلك أن جملة (إنه من سليمان..) بمنزلة جواب عن سؤال نشأ عن الجملة الأولى، فإن بلقيس لما أخبرت ملأها بأنها فوجئت بإلقاء رسالة دون أن ترى ملقيها على خلاف المألوف، ووصفتها بالسمو والشرف؛ إذ لم تر مثلها من ذى قبل فى مرسلها وفحواها- لما أخبرتهم بهذه المعانى أثارت فى نفوسهم سؤالاً كأنهم قالوا: ممن هو؟ وما هو؟ فقالت: "إنه من سليمان...". والمغزى من مجئ النظم على هذه الصورة تقرير مضمون الرسالة ومحتواها فى نفوس ملئها؛ من جهة أن هذا السؤال يثير فى نفوسهم تشوفاً وتلهفاً وطلباً إلى معرفة الجواب فإذا جاء الجواب فى قوله: "إنه من سليمان..."، والنفس مهيأة راغبة فى العلم به والوقوف عليه تمكن فيها أيما تمكن، ولزم عن ذلك الإشعار بأهميته وسمو منزلته، وحث المخاطبين على كمال العناية به؛ فلهذه المعانى كان الفصل أوفق وأليق بالغرض المسوق له الكلام، وذلك مراد الزمخشرى بقوله: "وقيل قصد ببسم الله الرحمن الرحيم هو استئناف وتبيين لما ألقى إليها كأنها لما قالت: إنى إلقى كتاب كريم" قيل لها: ممن هو؟ وما هو؟ فقالت: إنه من سليمان وإنه كيت وكيت"[1]، وتبعه البقاعى[2]، وأبو السعود[3] فى ذلك .

(١) الكشاف جـ٣/ ١٤١ .
(٢) نظم الدرر جـ٥/ ٥٢٣ .

الفن الثانى – تقديم جملة (إنه من سليمان) على جملة (إنه بسم الله الرحمن الرحيم) على خلاف الأصل فى تقديم اسم الله على اسم سليمان؛ لأنه أهم وأعظم هكذا: "إنه بسم الله الرحمن. ألا تعلوا على وأتونى مسلمين. إنه من سليمان".

تباينت أقوالهم فى توجيه هذا الترتيب وحكمته على أربعة مذاهب:

المذهب الأول- التأدب مع الله (تعالى)؛ بتعظيم ذاته العلية عن طريق تعظيم أسمائه الحسنى الواردة فى البسملة، وبيانه أن نبى الله سليمان(عليه السلام) لما كان قد علم أن بلقيس وقومها كفرة يعبدون الكواكب من دون الله (تعالى) كما أخبره الهدهد بقوله: ﴿**إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ. وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ...**﴾ الآية. لما كان قد علم بذلك خشى وهو يكتب إليها رسالته يدعوها إلى الإيمان ونبذ الكفر أن تسئ إلى الكتاب بأى من ضروب الإساءة كالسب أو التمزيق وما إليها كما هى عادة الملوك فى هذا الحال؛ فتكون أسماؤه (تعالى) فى صدارة من يتعرض لهذه الإساءة لو قدم اسمه (تعالى) على اسمه. فقال: "إنه بسم الله الرحمن الرحيم. ألا تعلو على وأتونى مسلمين. إنه من سليمان)؛ فاقتضى الحال أن يخالف الأصل بتقديم اسمه على اسم الله (تعالى) على النحو المذكور؛ تحاشياً لتلك الإساءة بجعل اسمه سداً وحجاباً يقى اسم الله (تعالى) لو وقع ذلك. وفى هذا المعنى يقول محمد الرازى: "فإن قيل: كيف استجاز سليمان (عليه السلام) تقديم اسمه فى الكتاب على اسم الله (تعالى) حتى كتب فيه: (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم)؟

قلنا: لأنه عرف أنها لا تعرف الله (تعالى) وتعرف سليمان فخاف أن تستخف باسم الله (تعالى) إذ كان أول ما يقع نظرها عليه؛ فجعل اسمه وقاية لاسم الله (تعالى)[1]، وحذا حذوه الفخر الرازى[2]، وأبو حيان[3]، والشيخ زكريا الأنصارى[4].

المذهب الثانى – أن ظاهر اللفظ يدل على أن سيدنا سليمان قدم اسمه على اسم الله (تعالى)؛ بتقديم جملة (إنه من سليمان) على جملة (إنه بسم الله الرحمن الرحيم)،وليس كذلك؛ لأن جملة (إنه من سليمان) كانت عنواناً فى ظاهر الكتاب لا باطنه ولا من متنه – كما يراه المذهب الأول – وأن (بسم الله الرحمن الرحيم) هى أول افتتاح الكتاب؛ لذلك بطل القول بإشكال وشبهة تقديم سيدنا سليمان اسمه على اسم خالقه؛ ببطلان الأساس الذى بنى عليه وهو تقديم جملة (إنه من سليمان) على جملة (بسم الله الرحمن الرحيم). انظر قول الرازى فى هذا الاحتمال: "لعل سليمان كتب على عنوان الكتاب (إنه من سليمان)، وفى داخل الكتاب ابتدأ بقوله: "بسم الله الرحمن الرحيم" كما هو العادة فى جميع الكتب فلما أخذت بلقيس ذلك الكتاب قرأت ما فى عنوانه فقالت: إنه من سليمان.

(١) مسائل الرازى وأجوبتها / ٢٥٧ .
(٢) مفاتيح الغيب جـ١/ ١٥٣ .
(٣) البحر المحيط جـ٨/ ٢٣٤ .
(٤) فتح الرحمان/ ٣٠٩

فلما فتحت الكتاب قرأت (بسم الله الرحمن الرحيم) فقالت: "وإنه بسم الله الرحمن الرحيم"[1]، ووافقه أبو حيان"[2] والطيبى[3].

المذهب الثالث – أن جملة (إنه من سليمان) من متن الكتاب افتتح سيدنا سليمان كتابه بها هكذا "بسم الله الرحمن الرحيم. ألا تعلوا على وأتونى مسلمين. إنه من سليمان" بتقديم اسم الله على اسمه، ولكن بلقيس حين قرأته على الملأ بعد أن قرأته وحدها على نسقه الأصلى خالفت ترتيب سليمان فقدمت اسمه على اسم الله بتقديم جملة (إنه من سليمان.." على جملة البسملة على النحو المذكور؛ فبطلت شبهة التقديم من هذه الجهة أيضاً، وثبت أنه تقديم من بلقيس؛ تجسيداً لغضبها على سماع اسم الله (تعالى؛ وإظهاراً من أول وهلة فى قراءته لمعنى تأبيها على الإسلام، وكبريائها على الله (تعالى) والتهكم بالخالق بتأخير اسمه عن اسم البشر، وهو مفهوم قول أبى حيان: "واحتمل أن يكون مؤخراً فى الكتابة عن (بسم الله) وأن ابتداء الكتاب (باسم الله)، وحين قرأته عليهم بعد قراءتها له فى نفسها قدمته فى الحكاية، وإن يكن مقدماً فى الكتابة"[4].

المذهب الرابع- أن بلقيس لما رأت الكتاب والهدهد علمت أنه من سليمان فقالت فى نفسها أو وحدها: "إنه من سليمان"، ثم لما فتحته رأته

(١) مفاتيح الغيب جـ١/ ١٥٣ .
(٢) البحر المحيط جـ٨/ ٢٣٤ .
(٣) الإتقان جـ٢/ ٧٠ .
(٤) البحر المحيط جـ٨/ ٢٣٤ .

هكذا "بسم الله الرحمن الرحيم..." فقرأته عليهم على ما رأته؛ فدل ذلك على أن جملة "إنه من سليمان" من كلامها، وأن بداية كلام سليمان أو الكتابة "بسم الله الرحمن الرحيم..."؛ فبطلت الشبهة – أيضاً من هذه الجهة، وذلك قول الرازى: "إن بلقيس لما وجدت ذلك الكتاب موضوعاً على وسادتها، ولم يكن لأحد إليها طريق وأتى الهدهد واقفاً على طرف الجدار علمت أن ذلك الكتاب من سليمان، وأخذت الكتاب، وقالت: "إنه من سليمان" فلما فتحت الكتاب ورأت (بسم الله الرحمن الرحيم) قالت: "وإنه بسم الله الرحمن الرحيم"؛ فقوله: "إنه من سليمان" من كلام بلقيس لا من كلام سليمان"[1].

ورجح أبو حيان القول بأن جملة (إنه من سليمان) من كلامه سليمان، وأنه من متن الكتاب افتتحه بها مقدماً إياها على جملة البسملة، واستند فى ذلك إلى دليلين:

١- أن الرسل كانوا يبدأون كتبهم بأنفسهم فيقولون: "من فلان إلى فلان".

٢- ماروواه أنس بن مالك عن الصحابة من أنهم كانوا يبدأون بأسمائهم إذاً كتبوا للرسول (ﷺ) أى يقدمون أسماءهم على اسم الله تعالى .

يقول: "والظاهر أن بداءة الكتاب من سليمان (باسم الله الرحمن الرحيم) إلخ ما قص الله منه خاصة فاحتمل أن يكون مقدماً على (بسم الله) وهو الظاهر. وقال أبو بكر بن العربى كانت رسل الله المتقدمين إذا

كتبوا كتاباً يبدأون بأنفسهم: من فلان إلى فلان وكذلك جاءت الإشارة، وعن أنس: ما كان أحد أعظم من رسول الله (ﷺ) وكان أصحابه إذا كتبوا إليه كتاباً بدأو بأنفسهم. وقال أبو الليث فى كتاب (البستان) له: ولو بدأ بالمكتوب إليه جاز؛ لأن الأمة قد أجمعت عليه وفعلوه"[1].

والشاهد فى قول أبى حيان: "وهو الظاهر"؛ حيث أراد بالضمير الاحتمال الأول الذى عبر عنه بقوله: "فاحتمل أن يكون (من سليمان) مقدماً على (بسم الله) أى من متن الكتاب افتتح به الكتاب وقدمه على جملة (إنه من سليمان).

وما ارتآه أبو حيان هو الأقوى من عدة وجوه :

١- مواءمته للغرض المسوق له الكلام وهو دعوة سيدنا سليمان (عليه السلام) إياها أن تخلع ثوب الملكية عن نفسها وتجعله مقصوراً عليه، وتلبس ثوب التبعية وقد كنى عن الأول بالترهيب من التعالى والإعراض، وعن الثانى بالتواضع والاستسلام، وكان الأصل أن يقال: "ألا تعلوا على الله وأسلموا" لكن لما كان الطغاة يسلكون طريق الظلام ويضلون طريق النور كانوا لا يخافون إلا من القوة المشاهدة المحسوسة قوة البشر؛ واقتضى ذلك صرف الكلام إليه، وهو معنى يشاكله الابتداء باسمه؛ تخويفاً لها وتحذيراً من مغبة المخالفة فكأنه يقول: أعلمى أولاً أننى ملك ذو قوة لا تقهر تستمد

قوتها من القوة العليا، فأطيعى أمرى، وإياك والإعراض، فإنه خسران مبين .

٢- اعتماده على الأدلة والبراهين التى تقويه وتنهض بصحته.

٣- سلامته من التعسف الذى بنيت عليه المذاهب الأخرى .

الفن الثالث- مجئ الخبر فى جملة البسملة على خلاف الظاهر هكذا: (وإنه بسم الله الرحمن الرحيم...)، وبيانه أن بلقيس وقومها كانوا جاهلين بمضمون جملة البسملة من ذى قبل؛ حيث كانوا يجحدون وجود الله ويعبدون الكواكب؛ فكان ذلك موجباً أن يساق الخبر إليهم بلا توكيد فيقال: "وهو بسم الله الرحمن الرحيم.."، لكنه عدل إلى خلافه فجاء به مقروناً بـ(إن)؛ لمقاصد ثلاثة :

١- تنزيل المخاطبين منزلة الشاكين فى مضمون البسملة والكتاب؛ لكونه غريباً غير مألوف فيخشى أن يعرض له منهم شك أو إنكار لو قيل: "وهو بسم الله..." بلا توكيد؛ من ثم كان سوقه مشفوعاً بـ(إن) أنسب وأوفق لحالهم؛ تقريراً له فى الذهن من أول الأمر؛ وقطعاً لشك أو إنكار أن يتسرب إليهم .

٢- المحافظة على قوة المعنى المسوق له الكلام وهو الترهيب من الكبرياء والترغيب فى التواضع والاستسلام لرسول رب الأرض والسماء؛ ذلك أن قوله: (وإنه بسم الله...) بتكرار (إن) بعد ذكرها فى (إنه من سليمان..." يشعر باستمرار تجسيد قوة سليمان ومضمون كلامه ويؤكد سوء عاقبة من يعرض عن أمره، عكس ما

لو قال: "وهو بسم الله" عارياً عنها، فإنه يفضى إلى فتور المعنى وتراخيه؛ مما لا يناسب طبيعة خطاب ملك نحو سليمان لملكة نحو بلقيس .

٣- المحافظة على حسن النظم؛ إذ لو قيل: "وهو بسم الله.." لأدى إلى عسر النطق وثقله على اللسان؛ بسبب تكرار واو العطف وواو الضمير فى (وهو) وقربهما فى النظم واتحاد مخرجيهما، عكس التوكيد فى (إنه بسم الله..) فإن النطق به أخف وأيسر؛ لسلامته من التكرار وبعد مخرج الواو عن مخرج الهمزة.

الفن الرابع – إيجاز بحذف مضاف فى قوله: "وإنه بسم الله الرحمن الرحيم" على احتمال أن المسند إليه مضمون الكتاب لاالكتاب نفسه وفى هذا يقول العز: (إنه من سليمان، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم) أى إن الكتاب صادر من عند سليمان، وإن مضمونه بسم الله الرحمن الرحيم".

وعندى أن الحذف مشعر بثلاثة معان .

١- تقرير مضمون الكتاب فى عقول بلقيس وقومها؛ لأن ثمة فرقاً فى المعنى بين أن يقال: "وإن مضمونه" وبين "وإنه" فى صفة الإعلام بالحكم فالأول مشعر بالمغايرة بين الكتاب وفحواه بخلاف الثانى فإنه يدل على شمولية ما فى الكتاب لكل معانيه ومقاصده حتى ليخيل إليك اتحادهما وأن المضمون أصبح الكتاب عينه وذلك أدعى

إلى التوكيد وأقوى فى سد طريق الشك أو الإنكار لا سيما إذا كان فحوى الكتاب بهذه المرتبة من وجازة اللفظ واحتفال المعنى.

٢- إثارة عاطفة التشويق نحو معرفة المحذوف، فإذا تعين عن طريق العقل كان العلم به ألذ وأمكن على ما أجمعوا عليه من أن الشىء إذا نيل بعد جهد كان أفضل .

٣- التعجيل بالغرض المسوق له الكلام؛ لاستدعاء المقام إياه.

٤- اتساق جملة البسملة مع ما قبلها (إنه من سليمان) فى قوة المعنى؛ من جهة أن الحذف مفض إلى اتحاد (إنه) الثانية مع الأولى فى عدد الحروف وختمهما بحرف الهاء الخارج من أقصى الحلق فيهب المعنى قوة وفخامة، أما الذكر فيؤدى إلى فتور المعنى وتراخيه بطول اللفظ وامتداده .

الفن الخامس – مناسبة الأسماء الحسنى فى البسملة للمراد، وكيفيته .

لحظ البقاعى أن الألوهية والرحمانية والرحيمية جاءت مطابقة لمقصود الرسالة وهو قصر العبادة على الله دون غيره؛ إذ فيها إشعار بتوكيده وترسيخه، فكأنه حين ألقاها إليهم نصبها أدلة وحججاً على صحة ما يدعو إليه والإذعان له، والمسارعة إلى امتثاله؛ على حد ما صرحت به فى النهاية إذ قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وذلك ما يوحى به قول البقاعى: "وإنه" أى المكتوب فيه (بسم الله الرحمن الرحيم) فحمد المستحق للحمد وهو الملك الأعلى

المحيط عظمه بدائرتى الجلال والإكرام العامة الرحمة بكل نعمة فملك الملوك من فائض ماله من الإنعام الذى يخص بعد العموم من يشاء بما يشاء مما ترضاه ألوهيته من إنعامه العام بعد التعريف باسمه؛ إشارة إلى أنه المدعو إليه للعبادة بما وجب له لذاته وما استحق بصفاته، وذلك كله بعد التعريف بصاحب الكتاب؛ ليكون ذلك أجدر بقبوله؛ لأن أكثر الخلق إنما يعرف الحق بالرجال"[1].

الفن السادس – إيجاز قصر فى (بسم الله الرحمن الرحيم). ووجهه أن سيدنا سليمان (عليه السلام) ضمن الكلمات الخمس كثيراً من المعانى، إذ أشار بها إلى قوته وقدرته على المجابهة، ومصدرها وهو الذات العلية، وأسبابها التى هى الألوهية المطلقة والرحمانية المطلقة والرحيمية الخاصة وهى جوامع معانى صفات الجلال والجمال، وأثرها فى غيرها نفعاً وضراً، واستحقاقها التعظيم والتبجيل بامتثال مقتضياتها ومنها دعوة سليمان إلى الإيمان بصاحبها وهجر الكفر فكأن تلك الخمس قامت مقام جمل عدة؛ إذ المعنى: اعلمى أنى قوى، وأنت ضعيفة، لا طاقة لك بعصيان أمرى ومجابهتى فيما أدعوك إليه، فأنا لا أخشى أحداً، إذ آوى إلى ركن شديد، يملك أسباب القوة المطلقة ويستأثر بها فتزول دونها سائر القوى وهذا تفصيل ما أجمله ابن التمجيد فى تعليقه على عبارة الشهاب؛ إذ يقول: (قوله: لاشتماله على البسملة الدالة على ذات الصانع، وصفاته صريحاً والتزاماً؛ فإن البسملة مشتملة على لفظة (الله) وهو علم دال على ذات الصانع صريحاً وعلى صفاته التزاماً، ومشتملة

(١) نظم الدرر جـ٥/ ٥٢٣ .

– أيضاً – على لفظتى (الرحمن الرحيم) الدالين على صفات الصانع صريحاً وعلى ذاته التزاماً"[1].

وفى هذا الإيجاز معنيان: المبالغة فى تصوير معنى الحسم والقوة التى تتسم بها لغة الرسالة؛ إذ الإطناب يفضى إلى تراخيه وخروجه عن طبيعته، التعريض بضعف بلقيس وقومها وافتقارها إلى الإسلام وما يلزم عنه من التلطف والاستمالة نحو قبول المراد أما الإطناب ففيه تصريح بالمعانى؛ مما قد يفضى إلى الفرار والإعراض .

الفن السابع – تقديم البسملة على العامل ودلالته:

لحظ البقاعى أن المغزى منه تقديم السبب على المسبب؛ إذ هى من النهى والأمر بمنزلة البينة بين يدى الدعوى؛ حيث يكون الكلام على هذا المسلك أدعى إلى ترغيب المخاطبين فى قبول الدعوة، والمسارعة إلى تحصيل مضمونها فمآل المعنى: إذا علمت أنى أدعوك بأمر الذات المتصفة بالألوهية والرحمانية والرحيمية؛ فإن ذلك سبب كاف إلى توكيد الكف عن الكفر والإذعان إلى الإيمان. وفى هذا يقول: "وإنه" أى المكتوب فيه "بسم الله الرحمن الرحيم" فحمد المستحق للحمد وهو الملك الأعلى المحيط عظمته بدائرتى الجلال والإكرام العامّ الرحمة بكل نعمة نملك الملوك من فائض ماله من الإنعام الذى يخص بعد العموم من يشاء بما يشاء مما ترضاه ألوهيته من إنعامه العام بعد التعريف باسمه؛ إشارة الى أن المدعو إليه بالعبادة؛ بما وجب له لذاته وما استحق بصفاته،

(١) حاشية ابن التمجيد على البيضاوى جـ٥/ ٢٧٠ .

وذلك كله بعد التعريف بصاحب الكتاب ليكون ذلك لقبوله؛ لأن أكثر الخلق إنما يعرف الحق بالرجال، ولما فى كتابه من الدلالة على نبوته فسر مراده بأمر قاهر فقال: (ألا تعلوا على)...."[1].

قراءات (إنه بسم الله الرحمن الرحيم) وأثرها البلاغى.

قرئت على ثلاثة مذاهب .

المذهب الأول– قراءة الجمهور بكسر الهمزة وتشديد النون هكذا (وإنه..) بالعطف على (إنه من سليمان" وهى التى عليها الرسم العثمانى[2].

المذهب الثانى – قراءة عكرمة وابن أبى عبيلة. بفتح الهمزة وتشديد النون هكذا (وأنه). وخرجه الزمخشرى[3] وأبو حيان[4] على وجهين:

الوجه الأول – كونه بدلاً من "كتاب" فكأنه قيل: إنى ألقى إلى أنه من سليمان وأنه بسم الله الرحمن الرحيم .

الوجه الثانى– كون (أن) ومعموليها فى تأويل مصدر مجرور بلام التعليل المقدرة والأصل: إنى ألقى إلى كتاب كريم؛ لكونه من سليمان، ولكونه مفتتحاً باسم الله (تعالى)، وهو متعلق بالكرم فى الإسناد

(١) نظم الدرر جـ٥/٤٢٣ .
(٢) الكشاف جـ٣/١٤١، البحر المحيط جـ٨/ ٢٣٤ .
(٣) الكشاف. الجزء والصفحة.
(٤) البحر المحيط. الجزء والصفحة .

(كريم)[1]. والمغزى منه على الثانى المبالغة فى إثبات الكرم إلى الكتاب؛ ذلك أنها بعد إخبارها بشرفه علقت هذا الحكم على سببين: كونه من ملك كريم هو سليمان، وكونه مصدراً باسم كريم وهو اسم الله. ولا ريب أن تعقيب الحكم بعلته أدعى إلى تمكينه فى النفوس.

ويحتمل تخريجه - أيضاً على أنه متعلق بمسند محذوف وقع جواباً لسؤال نشأ من الإسناد فى قوله: (كريم)؛ لأنها لما أخبرتهم بكرمه كأنهم سألوا عن سببه: لم أثبت له الكرم؟ فأجابت بحذف المسند: لكونه من سليمان، ولكونه مصدراً باسم الله .

المذهب الثالث- قراءة أبى بفتح الهمزة وتسكين النون هكذا (وأنه بسم الله الرحمن الرحيم)، وخرجه الزمخشرى[2] وأبو حيان[3] وأبو السعود على كون (أن) بيانية والجملة تفسيرية. المغزى منها تفسير الإبهام فى قوله: (كريم)؛ لأنها لما قالت: "كريم" أبهمت وجه كرمه فلما قالت: "أنه من سليمان، وأنه بسم الله الرحمن الرحيم) أفصحت، وبينت. وكان يمكن أن تقول من أول الأمر بجملة واحدة: إنى ألقى إلى كتاب كريم من سليمان فيه بسم الله الرحمن الرحيم يقول أبو السعود فى ذلك: "وقرئ (أن من سليمان، وأنه بسم الله الرحمن الرحيم. على أن (أن) المفسرة"[4] ومذهب الكسر والتشديد أقوى من وجوه:

(١) الكشاف جـ٣/١٤١.
(٢) الكشاف جـ٣/ ١٤١ .
(٣) البحر المحيط جـ٨/ ٢٣٤ .
(٤) إرشاد العقل السليم جـ٦/ ٢٨٣ .

١- أنه المشهور فالحمل عليه أولى .

٢- ما فيه من خفة النطق التى لا تراها فى الأخيرتين.

٣- ما يتضمنه من طرق التوكيد التى سبقت من تكرار (إن)، والفصل بين الجملتين، وتقديم البسملة على عاملها جملتى النهى والأمر .

الخاتمة

وبعد: فقد تمخض البحث عن عدة نتائج.

أولا- صحة القول بالفرق بين دخول العامل على الاسم دون المسمى فى البسملة، وما شاكلها، وبطلان اتحاد الوجهين؛ لمايلزم عن الأول من إثبات إعجاز القرآن وحجيته، واستحالة ما ينافيه على ما فصلت فى موضعه.

ثانيا-التعويل فى الفرق بين الوجهين على ما يوافق المعنى المراد؛ بناء على الأصل الذى وضعه الإمام مالك حين قال: الاسم ليس المسمى ولا غيره.

ثالثا- مجئ البسملة على هذا النحو من النظم المغزى الأصلى منه تقرير المقصد الأصلى من القرآن وهو توحيد الله بالعبادة ونفى الشرك؛ من جهة أن ما فيه من عقائد وتشريعات فى حكم الأدلة والشواهد على هذا المقصد.

رابعا- أكدت الدراسة بالحجج القاطعة بطلان كون الإعجاز العددى من صور الإعجاز العلمى؛ بناء على بطلان ما بنى عليه من الربط بين البسملة وآية (عليها تسعة عشر) فى العدد تسعة عشر، وإثبات أنه من طرق الإعجاز البلاغى التى قام بها التحدى وثبتت الحجة.

خامسا- أسفرت الدراسة عن كون البسملة آية من التوبة وردت محذوفة من عند الله (تعالى)؛ لحكمة رفع الأمان عن الكفار والمنافقين، وأن ما

سوى ذلك من كون حذفها من عمل سيدنا عثمان أو لحكمة أخرى غير صحيح؛ لاتكائه على أدلة واهية.

سادسا- ظهر من خلال البحث فى قصة الطوفان حمل النظم على كون البسملة فى كلام سيدنا نوح جملة مستقلة لا قيداً فى جملة (اركبوا)؛ لما تضمنه الوجه الأول من وسائل البيان المناسبة للمعنى المراد وهو الاستعانة بالله وحده فى النجاة من الطوفان على ما جاء فى مظانه من البحث.

سابعا- اتضح بلاغة وقوع البسملة فى موضعها من رسالة سليمان، وأن النظم فيها بمنزلة البراهين القاطعة الموائمة لمقصود الرسالة وهى الدعوة إلى عبادة الله وهجر عبادة الكواكب وكل ما سواه.

المصـــادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- الإتقان فى علوم القرآن. لجلال الدين عبدالرحمن السيوطى- مطبعة مصطفى الحلبى- الطبعة الرابعة ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

٣- الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار. لأبى زكريا محيى الدين يحيى بن شرف النووى ٦٧٦هـ- دار الغد العربى- الطبعة الأولى- ١٤٩٠م.

٤- الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع الإيجاز. لعزين الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام ٦٦٠هـ- دار الحديث- القاهرة.

٥- الإغفال فى إعراب القرآن. لمكى بن أبى طالب القيسى ت- ٤٣٧هـ. رسالة ماجستير. دراسة وتحقيق: خليل أحمد محمد عمايرة. إشراف د. عبدالحميد السيد طلب.

٦- البحر المحيط. لأبى حيان محمد بن يوسف الأندلسى ٧٥٤هـ- دار الفكر- بيروت- لبنان ١٩٩٢م.

٧- البداية والنهاية. لأبى الفداء الحافظ بن كثير الدمشقى ٧٧٤هـ. تحقيق: أحمد عبدالوهاب فتيح- دار الحديث- القاهرة- الطبعة الخامسة ١٩٩٨م.

٨- البرهان فى علوم القرآن. لبدر الدين محمد بن عبدالله الزركشى ٧٩٥هـ- تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم- دار التراث- ش الجمهورية- القاهرة.

٩- التفسير القيم. لابن القيم الجوزية ٧٥١هـ. جمع محمد أويس الندوى- مراجعة محمد حامد الفقى- مكتبة السنة المحمدية- القاهرة.

١٠- الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله (ﷺ) وسننه وأيامه. بحاشية السندى. لأبى عبدالله محمد بن إسماعيل البخارى السمرقندى ١٩٤- ٢٥٦هـ- مطبعة عيسى الحلبى- القاهرة.

١١- العقد الفريد. لأحمد بن محمد بن عبدربه الأندلسى ت(٣٢٧هـ) شرح وضبط وتصحيح: أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الإبيارى- دار الكتاب العربى- بيروت- ١٩٨٢م.

١٢- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها. لمكى بن أبى طالب القيسى ٤٣٧هـ- تحقيق محيى الدين رمضان. إشراف الدكتور: رمضان عبدالتواب. ماجستير بآداب عين شمس ١٩٧٢م.

١٣- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها. للمؤلف والمحقق.

١٤- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل. لجار الله محمد بن عمر الزمخشرى الخوارزمى ٥٣٨هـ- دار المعرفة- بيروت- لبنان.

١٥- المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز. لعبدالحق بن عطية الأندلسى ٥٤١هـ- تحقيق: أحمد صادق الملاح- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٩٩م.

١٦- المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى. لأبى حامد الغزالى ٥٠٥هـ- مكتبة القاهرة.

١٧- المنهاج فى صحيح مسلم بن الحجاج بشرح النووى- تحقيق: عصام الصبابطى- دار الحديث- الطبعة الثالثة ١٩٩٨م.

١٨- اختصار النكت والعيون. للعز بن عبدالسلام- دار الرشد- الرياض- السعودية.

١٩- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. لأبى السعود محمد العمادى ٩٥١هـ- دار إحياء التراث العربى- بيروت- الطبعة الثانية- ١٩٩٠م.

٢٠- بدائع الفوائد. لابن القيم الجوزية- مكتبة القاهرة- شارع الصنادقية- الأزهر- الطبعة الثانية ١٩٧٢م.

٢١- بديع القرآن. لابن أبى الأصبع المصرى ٦٥٤هـ- تحقيق الدكتور: حفنى محمد شرف- الطبعة الثانية- دار نهضة مصر- القاهرة.

٢- بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز. لمحمد بن يعقوب الفيروزابادى ٨١٧هـ- تحقيق: محمد على النجار- الطبعة الثانية ١٩٨٦م.

٢- تأويلات أهل السنة. لأبى منصور محمد الماتريدى ٣٣٣هـ تحقيق الدكتور: إبراهيم عوضين. السيد عوضين- مجلس الشئون الإسلامية ١٩٩٤م.

٢- تفسير القرآن العظيم. للحافظ بن كثير ٧٧٤هـ- دار الفكر- الطبعة الثانية- ١٩٩٨م.

٢- تقويم مذاهب مكى القيسى فى تعليل القراءات واختيارها ونقدها. رسالة دكتوراه. لمحيى الدين رمضان- آداب عين شمس ١٩٧٢م.

٢- جواهر القرآن ودرره. لأبى حامد الغزالى ٥٠٥هـ- دار الآفاق الجديدة- بيروت.

٢- حاشية ابن التمجيد على تفسير البيضاوى- المطبعة العامرة ١٢٨٥هـ.

٢- حاشية قطب الدين محمد بن مسعود الرازى على الكشاف ٧٦٦هـ- تحقيق أيوب عبدالعزيز أيوب ١٩٨٠م (رسالة دكتوراه).

٢- سيرة النبى (ﷺ) لمحمد بن إسحاق المطلبى ١٥١هـ- تهذيب عبدالملك بن هشام الحميرى ٢١٨هـ. تحقيق وضبط: محمد

محيى الدين عبدالحميد- نشر محمد على صبيح- ميدان الأزهر- ١٩٧١م.

٣٠- شروح التلخيص- دار السرور- بيروت- لبنان.

٣١- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا. لأبى العباس أحمد القلقشندى ٨٢١هـ- الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة- ٢٠٠٤م.

٣٢- عناية القاضى وكفاية الراضى. حاشية الشهاب الخفاجى على تفسير البيضاوى ١٠٦٩هـ- دار إحياء التراث العربى- بيروت- لبنان.

٣٣- عيون الأخبار. لعبدالله بن مسلم ابن قتيبة ٢٧٦هـ- الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٩٧٣م.

٣٤- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن. لأبى يحيى زكريا الأنصارى. تحقيق محمد على الصابونى- عالم الكتب- بيروت.

٣٥- كشف المشكلات وإيضاح المعضلات فى إعراب القرآن وعلل القراءات لعلى بن حسين الباقولى الملقب ببيان الحق وجامع العلوم ٥٤٣هـ- تحقيق عبدالقادر عبدالرحمن السعدى- الطبعة الأولى- دار عمار- الأردن.

٣٦- لوامع البينات. شرح أسماء الله تعالى والصفات. للفخر الرازى ٦٠٦هـ. تحقيق: طه عبدالرءوف سعيد- مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٦م.

- مجاز القرآن. لأبى عبيدة معمر بن المثنى ٢١٠هـ- تحقيق د. محمد فؤاد سزكين- مكتبة الخانجى بمصر.
- مسائل الرازى وأجوبتها من غرائب آى التنزيل- لحمد بن أبى بكر الرازى ٦٩١هـ. تحقيق: إبراهيم عطوة عوض- مصطفى الحلبى ١٩٦١م.
- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور. لبرهان الدين إبراهيم البقاعى ٨٨٥هـ- تحقيق. الدكتور: عبدالسميع محمد حسنين- مكتبة المعارف- الرياض- السعودية- الطبعة الأولى- ١٩٨٧م.
- معانى القرآن. ليحيى بن زياد الفراء ٢٠٧هـ- تحقيق: أحمد يوسف نجاتى، محمد على النجار. الهيئة المصرية العامة للكتاب- الطبعة الثانية- ١٩٨٠م.
- معانى القرآن وإعرابه. لأبى إسحاق الزجاج ٣١١هـ. تحقيق الدكتور: عبدالجليل عبده شلبى- دار الحديث- الطبعة الأولى ١٩٩٤م.
- معترك الأقران فى إعجاز القرآن. لعبدالرحمن السيوطى- تحقيق على محمد البجاوى دار الفكر العربى.
- مفاتيح الغيب. للفخر الرازى- دار إحياء التراث العربى- بيروت- الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

٤٤- نتائج الفكر فى النحو. لعبدالرحمن عبدالله السهيلى ٥٨١هـ- تحقيق. الدكتور: محمد إبراهيم البنا- دار الرياض للنشر والتوزيع- السعودية.
٤٥- نثر الدر. للوزير الكاتب منصور بن الحسين الآبى ٤٢١هـ- تحقيق: محمد إبراهيم عبدالرحمن- مراجعة على محمد البجاوى- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م.
٤٦- نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور. لبرهان الدين البقاعى- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى ١٩٩٥م.
٤٧- نهاية الأرب فى فنون الأدب. لأحمد بن عبدالوهاب النويرى ٧٣٣هـ. دار الكتب المصرية ١٩٣٨م.

مرآة البحث

مقدمـــــــة

المبحث الأول- البسملة فى افتتاح القرآن.. خصائصها وأسرارها.

وفيه ستة محاور. الأول – دخول الباء على الاسـم (٣-١٣) الثـانى- إضافة (اسم) إلى لفظ الجلالة (١٣-١٦) الثالث – تقييد لفـظ الجلالـة بصفة (الرحمن) (١٦- ٢٠) الرابع – تقـديم صـفة (الـرحمن) علـى (الرحيم) (٢٠-٢٣) الخامس-تقديم البسملة على العامـل (٢٣-٢٨)- السادس – بناؤها على العدد تسعة عشر (٢٨-٣٤).

المبحث الثانى-البسملة فى مطلع سورة التوبة. حذفها ودلالتها

وفيه خمسة مذاهب: الأول (٣٦- ٣٨) الثانى (٣٨- ٤١) الثالث (٤١- ٤٣) الرابع (٤٣) الخامس (٤٣- ٤٤) التحقيق والترجيح (٤٤- ٥٣).

المبحث الثالث- البسملة فى قصة الطوفان. خصائصها وأسرارها وأهـم مسائله:

وجوه إعرابها وأثرها البلاغى (٥٥- ٦٢) فنون النظم على كـل وجـه ومعانيها (٦٢- ٧٢) التحقيق والترجيح (٧٢-٧٦).

المبحث الرابع- البسملة فى رسالة سليمان إلـى بلقـيس. خصائصـها وأسرارها.

وأهم مسائله: تقديم (إنه من سليمان) على البسملة. المذاهب والتحقيـق

(٧٩- ٨٤) مجئ الخبر على خلاف الظاهر (٨٤- ٨٥) مناسبة الأسماء الحسنى للمعنى المراد (٨٦- ٨٧) إيجاز القصر فى البسملة (٨٧- ٨٨) تقديمها على العامل (٨٨- ٨٩) قراءات البسملة وأثرها البلاغى (٨٩- ٩١).

الخاتمـــــــة

المصادر والمراجع

مرآة البحـــــث

(٧٩- ٨٤) مجئ الخبر على خلاف الظاهر (٨٤- ٨٥) مناسبة الأسماء الحسنى للمعنى المراد (٨٦- ٨٧) إيجاز القصر فى البسملة (٨٧- ٨٨) تقديمها على العامل (٨٨- ٨٩) قراءات البسملة وأثرها البلاغى (٨٩- ٩١).

الخاتمـــــــة

المصادر والمراجع

مرآة البحـــــث